يصدرها: حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

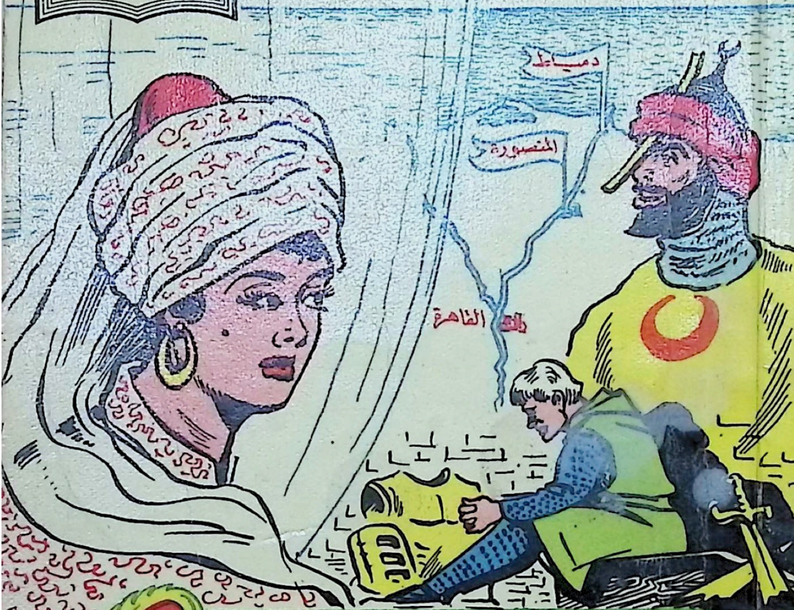

فرنسا الجريحة على ضفاف النيل!

للمؤرخ المستشرق "ادوين جون ديفير"

١٠ قروش

ادوين جون ديفيز

فرنسا الجريحة على ضفاف النيل

INVASION OF EGYPT

By

EDWIN JOHN DAVIS

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الحادى والعشرون

فرنسا الجريحة على ضفاف النيل

تأليف : ادوين جون ديفيز
ترجمة : زكى شنودة المحامى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة ((كتابى))
(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ثمانية وخمسون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى . قلب عذراء . الهاربة من الجنة . حواء الجديدة . أحدب نوتردام . جريمة حب . عشيقة نابليون . مذكرات كيوبيد صنم تحطم . حديقة الله . عندما تحقد المرأة . لعبة الحب والموت . توبة خاطئة . أيها الربيع ترفق . الشيطان على الارض . ليدى هاملتون .الارملة المرحة . حياة جورج صاند . حياة سارة برنار . رباعيات عمر الخيام . حياة بتهوفن . حياةموسولينى. كوخ العم توم .الزوج والعشيق .البوهيمية فتاة لها ماض . ترويض النمرة . فن الحب . الجريمة والعقاب . المنافق. أميرة مصر . الامطار . أفروديت . أقنعة الحب السبعة . سالومى . الاعداد من ٣٦ — ٥٨

• وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ماعدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والاعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . أما الاعداد السنة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت، واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا ((عن سنة)) خالصة أجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياةامرأة (جزءان) ، الخطيئةالاولى ، أوديب ، مدام بوفارى ، (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ المحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن . وثمن كل من الاول والرابع والسابع والتاسع عشر ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل)

التاريخ يعيد نفسه
.. بعد ٧٠٠ سنة !

عزيزى القارىء

حقا ان التاريخ يعيد نفسه . ويا لها من اعادة حافلة بالمغزى الأليم !

واذا أردت دليلا على هذا المثل الخالد ، فحسبك أن تقرأ هذا الكتاب ، الذى رأيت أن أقدمه لك هذا الشهر ـ حرصا منى على التنويع فى مادة ((مطبوعات كتابى)) ، بعدم قصرها على القصص ، من جهة ، وتمشيا مع مناسبة الحملة العسكرية الباغية التى هاجمت مصر منذ أسابيع من جهة أخرى .

أقول ، حسبك ان تقرأ هذا الكتاب التاريخى الجامع ، لتؤمن معى بأن التاريخ قد أعاد نفسه ـ على يد مجرمى الحرب : ايدن ، ومولبه ، وبن جوريون ـ بنفس البغى ، والعدوان ، والنفاق ، والشر ، التى أملت على فرنسا فى عهد ملكها التعس ((القديس لويس التاسع)) ـ ويا لسخرية الألقاب ! ـ أن تشن على مصر حملتها الصليبية الفاشلة فى عام ١٢٤٩ ، أى منذ أكثر من سبعمائة عام !

سبعمائة عام انقضت على البشرية منذ تلك الحملة ، ومع ذلك فما تزال شريعة الغاب تسود العلاقات بين الدول ، كبيرها وصغيرها .. ما يزال الأسد يطمع فى افتراس الحمل ، والذئب يسعى الى التهام الشاة !

على ان العبرة الكبرى التى أرجو ان تخرج بها من قراءة هذا الكتاب ـ وسوف تخرج منه بالكثير من العبر ـ العبرة الكبرى هى ان الغرب كان دائما يقوم بدور الذئب أو الأسد ، الذى يسعى الى افتراس الشرق ، طمعا فى نهب خيرات بلاده ، وامتصاص دماء ابنائه ، واستغلال موارد أراضيه ..

وهو حين يعد مؤامرته الدنيئة هذه لا يعدم حجة سمجة يبرر بها عدوانه الآثم : فكما تعلل فى المؤامرة الاخيرة وتشدق بما أسماه ((حماية حرية الملاحة)) !.. تعلل فى تلك المؤامرة القديمة وتشدق بما أطلق عليه ((حماية قبر المسيح فى بيت المقدس من عدوان المسلمين)) !.. والواقع انه بقدر بطلان حجة الغرب الجديدة فى منتصف القرن العشرين ، كانت باطلة بدورها حجة الغرب القديمة فى منتصف القرن الثالث عشر ... فالواقع الذى سوف تقتنع به بعد قراءة هذا الكتاب ، أن تلك الحروب التى أطلقوا عليها ((الصليبية)) نفاقا وبهتانا ، لم يكن لها من هذه النعرة غير الاسم ، ولا كان لها من الدين غير ((الستار)) الذى يخفى رجال السياسة من ذوى المطامع الخبيثة وراءه أهدافهم الحقيقية ، وهى استعباد الشرق وكسر شوكته كلما قويت دوله واستيقظت من غفلتها وسباتها !

وقد عمد ساسة القرون الوسطى ، كيما يظفروا بتأييد البابوات ورجال الدين ذوى النفوذ فى ذلك العصر ، الى اثارة نعرة التعصب الدينى ((المزعومة)) التى تتمشى مع عقلية شعوبهم التى كانت تخيم عليها ظلمة الجهل والرجعية وقتئذ .. وبذلك تسنى لهم ان يسوقوا تلك الشعوب الى ((المجزرة)) بل المجازر التى دبروها لهم طيلة أكثر من قرنين كاملين

ولكي أتيح لك أن تلم — على هذا الضوء — بتاريخ الحملات الصليبية جميعها بوجه عام ، (نظرا لأن الكتاب الرئيسى الذى أقدمه لك هنا يقتصر على سرد قصة حملة لويس التاسع على مصر ، دون غيرها) ، فقد رأيت أن أمهد للكتاب — فى الصفحات التالية — بايراد مقدمة عامة عن جميع الحملات ، مستقاة من مصادر تاريخية أخرى غير الكتاب نفسه ..

وقد اقتضتنى أمانة الترجمة الكاملة — التى هى شعار

((مطبوعات كتابي)) كما تعلم - ان أورد النص الدقيق للكتاب كما كتبه مؤلفه ، متجاوزا عما ضمنه بطبيعة الحال من اشادة ببطولة قومه ، في بعض المواضع - وابراز لعيوب الشرق ، في مواضع أخرى ! - تاركا للمؤرخين المعاصرين مهمة تفنيد أقواله عند الاقتضاء . أما المراجع التي استعان بها المؤلف فهي ، وفقا للبيان الذي أورده في صدره : ((تاريخ سلاطين المماليك في مصر)) للمقريزي .. مذكرات ((دي جوانفيل)) ، (مرافق الملك لويس التاسع في حملته) .. ومؤلفات المؤرخين العرب : ((أبي المحاسن)) ، و ((أبي الفداء)) ، و ((الاسحاق)) .. وكتاب ((ستانلي لينبول)) عن ((الفن الاسلامي في مصر)) .. ومخلفات ((سلفستر دي ساسي)) .. الخ .

ولما كانت الطبعة الأصلية من الكتاب خالية من الصور والرسوم تماما ، فقد اقتضاني ذلك أن أنقب لك في كثير من المراجع التاريخية الأجنبية كي استخرج منها الخمسين رسما ونيف التي تراها تتخلل صفحات هذا العدد ، وهي رسوم نقل بعضها عن نقوش أثرية حفرت على الخشب في أوانها (وهي ما تسمى بالـ ((جرافير))) .. أما البعض الآخر فمنقول عن لوحات ملونة رسمت منذ قرون على زجاج كنائس فرنسا القديمة (ومنها كنيسة ((سانت شابيل)) المجاورة لسجن الكونسييرجيري بباريس ، وهي الكنيسة التي شيدها الملك لويس التاسع نفسه !) .

وأملي أن يساهم الكتاب الذي بين يديك في اضافة عنصر ثقافي وسياسي وحربي هام الى المكتبة العربية ..

والله ولي التوفيق

حلمي مراد

الحروب الصليبية

دافعها الحقيقى كان السيطرة على الشرق ، لخدمة مصالح الغرب ، لا لخدمة الدين !

• لم يكتب عن حروب فى تاريخ البشرية قدر ماكتب عن الحروب الصليبية . ولعل ذلك يرجع الى أنها استغرقت زهاء قرنين من الزمن – بين سنتى ١٠٩٦ و١٢٩١ – كما يرجع الى أن الصبغة الدينية التى أسبغت عليها جعلت البابوات يوفدون رسلهم كى يجوسوا فى طول أوربا وعرضها داعين الى القتال فى سبيل الله والاراضى المقدسة ، مما أذاع أنباء هذه الحروب بين مختلف طبقات الشعوب .. والى جانب جولات الرهبان والقساوسة ، ألهمت الحروب ذاتها كثيرا من الشعراء قصائد تسجل بعض الاحداث التى تخللت القتال ، وتشيد بالبطولة والجهاد ، فلم تلبث هذه القصائد أن صارت أغانى تتردد على الشفاه فى كل مكان .. فضلا عن أن النهضة الثقافية التى تخللت واعقبت هذه الحروب ، حفزت الكثيرين من الكتاب على تسجيل تاريخ حملاتها ومعاركها ، فى القرن الثالث عشر والقرون التى تلته .. بل حتى فى أيامنا هذه ، لايزال يظهر – بين الحين والآخر – مؤرخون يتناولون هذه الحروب بالتحليل والدراسة تحت أضواء جديدة لم يستنر بها معظم من سبقوهم ، لاسيما اولئك الذين كانوا يعيشون فى فترات الحروب ذاتها ، أو فى أعقابها مباشرة

واذا كانت كتابات هؤلاء المؤرخين الاوائل – الذين عاصروا الحروب أوجاءوا بعدها مباشرة – تعتبر من الثروات العلمية ، لانها فى الاغلب منقولة عمن شاهدوا المعارك وخاضوا غمارها ،

او عمن عاشوا على اتصال بها ، على الاقل .. **الا أن هــذه العوامل ذاتها ، فى الوقت عينه ، كانت مصدرا من أهم المصادر التى أحاطت تلك الكتابات نفسها بالشكوك والشبهات .. فان معظم الذين كتبوا عن الحروب الصليبية فى حينهـا ، كانوا فى الأغلب خاضعين للانفعالات المختلفة التى أثارتها حرب عارمة ، مسترسلة كهذه ، فكان من الطبيعى أن يتنكبوا الحياد ، متأثرين فى ذلك بالنعرات العنصرية والدينية ، سيمـا وان الدعايات التى اكتنفت هذه الحروب اعتمدت أول ما اعتمدت على اثارة الغرائز والنعرات ، فى مجتمع كان يسوده الجهل والاقطاع .. وهو المجتمع الذى كان قائما فى معظم أوربا اذ ذاك !**

والى هذه الانفعالات وما صاحبها من عوامل يعزى التصاق الصفة الدينية بهذه الحروب . فان الذى يدرس التاريخ فى تمعن وتمحيص ، يستطيع أن يدرك أن الدين انما استغل فى هذه الحروب كمادة للدعاية والاثارة ، أكثر مما كان سببا من الاسباب الرئيسية التى دعت اليها !

حروب من أجل النفوذ .. لا الدين !

• **والواقع** انه كان للمـؤرخين الذين عاصروا الحـروب الصليبية ، وخدعوا بالصبغة الدينية التى أضفيت عليهـا ، عذر قوى فى أن يقصروا أسبابها ودواعيها على الدين وحده . ولولا ذلك ، لولا خضوعهم القوى لتيارات الدعاية القوية التى قامت بها البابوية ، والتى استغلها ملوك وأمراء أوربا ، لادركوا انه لم تكن ثمة دواع دينية قوية تثير حربا كهذه ، ظلت متواصلة حوالى قرنين من الزمن ! **ولو صح أن الحرب الصليبية قامت فى البـداية من أجل تخليص (بيت المقـدس) من المسلمين ، لكان فى هذا مغالطة كبرى ، فلقد استولى المسلمون على بيت**

المقدس فى سنة ٦٣٧ ميلادية – أى فى العام الخامس عشر الهجرى – وظلت المدينة فى أيديهم حوالى أربعة قرون قبل نشوب الحرب الصليبية ، دون أن تنقطع صلتها بالعالم المسيحى عامة ، وبالعالم المسيحى الغربى خاصة ، فان التسامح الاسلامى كفل حرية العبادات ، ومن ثم كان الحجاج المسيحيون يتوافدون على القدس دون أن يعوقهم عائق ، وكانت الصلات وثيقة بين كنيسة القدس والكنيسة اللاتينية ، حتى أن بطريرك القدس أرسل الى شرلمان فى سنة ٨٠٠ مفاتيح المدينة ولواءها ،

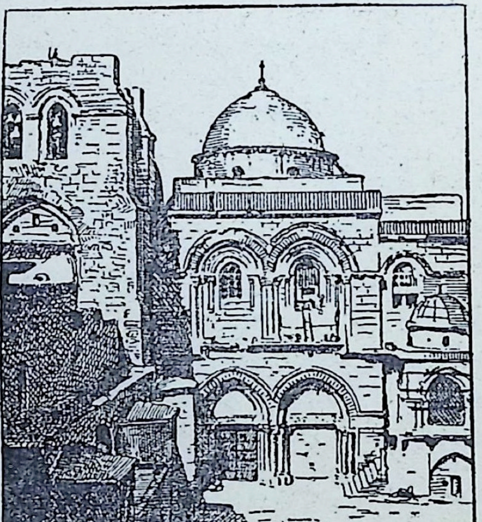

كنيسة القبر المقدس بمدينة القدس

فلم يعارض المسلمون فى ذلك .. بل ان «هارون الرشيد» أيد هذا العمل فى سنة ٨٠٧ ، اذ اعترف بشرلمان حاميا للقدس ، ومالكا لكنيسة القيامة ، وسمح له بأن ينشىء فى المدينة كنيسة أخرى ومكتبة مسيحية . كما أن «ألفريد» ملك انجلترا ، و «لويس» ملك ألمانيا ، وغيرهما ، كانوا يرسلون منحا واعانات للكنيسة فى القدس فى القرن التاسع ، وكانت هذه الكنيسة ــ من ناحيتها ــ تمتلك بعض الاراضى فى الغرب

وهكذا تشهد الحقائق التاريخية على أن بيت المقدس ــ والاراضى المقدسة عامة ــ لم تكن مهددة عند انبعاث الدعوة الصليبية ، بما يستدعى قيام حرب دينية ..

حملة صليبية ضد المسيحيين لا المسلمين !

• **ومن الممكن** أن نضيف الى هذا حقيقة أخرى ، تلك هى أن الامبراطورية الرومانية الشرقية ــ التى كانت معقلا من معاقل المسيحية فى الشرق ــ لم تنج من بعض حملات صليبية وجهت ضدها ، وبخاصة الحملة الرابعة .. كما يضاف الى هذا ما أثبته التاريخ من تنافس الملوك والامراء الغربيين ــ الذين اشتركوا فى الحملات ــ على النفوذ فى الشرق ، تنافسا كان يؤدى فى أحيان كثيرة الى الصدام بينهم .. فى الوقت الذى سجل فيه التاريخ أيضا ــ من ناحية أخرى ــ حوادث تقارب وتحالف بين بعض الامراء الصليبيين والامراء العرب ، ضد بعض أمراء آخرين من الصليبيين ! .. ومثل هذا التحالف ــ فى حد ذاته ــ يقضى على الصبغة الدينية للحركة الصليبية ! .. ثم ، كانت هناك أيضا المفاسد والفجور والتهتك التى كان أفراد الحملات يغرقون فيها ، كما حدث فى الحملة التى سيرها لويس التاسع ــ الملقب «بالقديس» ــ ضد مصر !

هذه كلها شواهد تعارض ماشاع فى التاريخ من أن الحروب الصليبية كانت مجرد حملات دينية سيرها الغرب المسيحى ضد المسلمين ، لاسباب دينية ..

اذن ، فما هى الدواعى ، وما هى الاسباب الحقيقية للحرب ؟

وهنا يستطيع من يغوص ببصره فى أعماق التاريخ الى ما وراء الحوادث ، أن يجد الجواب ممثلا فى هذه الحقيقة :

ان الاسباب والدواعى الحقيقية للحروب الصليبية ، هى نفس الأسباب والدواعى الحقيقية التى تكمن وراء كل حرب يسيرها الغرب ضد الشرق ، فى أى عصر ، انها التنافس ، والجشع ، والاستعمار !

وتقول دائرة المعارف البريطانية فى هذا الصدد : « من الخطأ اعتبار الحركة الصليبية من خلق الكنيسة وحدها ، أو مجرد نتيجة للسياسة الكنسية ، بل قد يكون الاصوب أن نقول ان الكنيسة خلقت اسم « الصليبية » لتبرير مصالح ومطامع قامت لاغراض لاتمت الى الدين ، ولكنها — للمصادفة — تمشت فى الوسيلة مع اغراض الكنيسة . كان هناك — على سبيل المثال — الامير المغامر الذى قدر له ان يكون الابن الثانى لابيه ، فهو لايرث ألقابا ولا أملاكا ، ومن ثم فقد طمع فى ان يقتطع لنفسه إمارة فى الشرق .. وهناك مصالح المدن الايطالية التى كانت تواقة الى الفوز بمحصولات الشرق مباشرة وبأرخص الاسعار .. وبقدر ما أحدثت الحملات الصليبية من نتائج دائمة فى الشرق ، فان هذه النتائج تعزى الى هذين الدافعين »

ويقول المصدر ذاته فى موضع آخر : « **يجب الاعتراف أيضا بان هناك حوافز دنيوية استهوت الصليبيين » . فقد كانت المجاعات والاوبئة تستشرى فى بعض أرجاء أوربا ، وتغرى الرجال على الذهاب الى الشرق ، حيث الخيرات الوافرة ، وحيث المغفرة التى كان يمنيهم بها رجال الدين الذين انتشروا**

فى كل مكان ، يحرضون الناس على تخليص الاراضى المقدسة)) ، ليضمنوا التكفير عن خطاياهم ، والحج الى بيت المقدس وكنيسة القيامة ، والثراء العميم ! .. وكانت من أهم هذه المجاعات تلك التى سادت المنطقة الممتدة من (الفلاندرز) الى (بوهيميا) فى سنة فى ١٠٩٤ ، وتلك التى تفشت فى (اللورين) فى سنة ١٠٩٥ ، فلا عجب أن تدفق على الشرق سيل المحاربين المتطوعين ، وبينهم المعدم .. والمفلس .. والمتعطل .. والمفلت من العدالة .. والراهب الهارب من قيود الرهبنة !

هكذا كان يبدو كونت دى فلاندرز ، الذى اصبح فيما بعد امبراطورا على القسطنطينية

فرنسا مبعث المصائب للشرق • • دائما !

• **ومما يلاحظ** ان الحملات الصليبية نبتت ـ فى الاصل ـ على ارض فرنسا ، وكان المبشر الذى راح يحرض عليها ـ وهو البابا « ايربان الثانى » ـ من أصل فرنسى • وقد ظلت الحروب

الصليبية فى جوهرها فرنسية .. وكانت المملكة المسيحية التى أقيمت فى الارض المقدسة ـ مملكة بيت المقدس ـ فرنسية فى لغتها ، وتقاليدها ، وعاداتها ، وفضائلها ، ومفاسدها ومباذلها !

وليس من عجب فى ان تكون فرنسا مهد الصليبية فهى :

أولا : كانت مهد مذهب « الكلونياك » الذى كان يدعو المسيحيين الى التوبة والتكفير عن ذنوبهم بالحج الى بيت المقدس ، ويبشر بأن التوبة تكون بقدر مايتجشم الحاج من وعثاء السفر ، ومتاعب الطريق وأهوالها

ثانيا : كان التناحر الاقطاعى فى فرنسا قد بلغ أشده ، فكان من الطبيعى السعى الى توجيه غريزة الحرب والفروسية الى الفتح الدينى ! وكان من الطبيعى ـ كذلك ـ أن يجد هذا التوجيه استجابة من البلاد والفرسان ، اذ كانت مكانتهم فى المجتمع قد بدأت تتزعزع ، فرأوا فى المغامرة ـ المصطبغة بصبغة الجهاد الدينى ـ طريقا لاستعادة المجد والجاه !

ثالثا : كانت فرنسا قد عانت فى تلك الحقبة ، من الحروب والاغتيالات والاوبئة والمجاعات ، ماحبب الى كل قادر ان ينشد الفرار من فرنسا ، سيما وان الشرق كان مشهورا بأنه موطن الخيرات وكنز الثروات

رابعا : كانت الحرب غريزة فطر عليها أبناء (نورمانديا) ، وكان التحالف مع البابوية يمنيهم بامتلاك اراض جديدة فى الشرق

ومن هذه العوامل جميعا ، نستطيع أن ندرك السر فى أن القوات الصليبية كانت تحشد ـ فى أغلب المرات ـ على اراضى فرنسا !

الحملة الصليبية الاولى

• **ولو اننا** تناولنا الحملات الصليبية فرادى ، لوجدنا الطابع الدنيوى يغلب الطابع الدينى فى كل منها ، ولوجدنا فرنسا – فى أغلبها – بوتقة الاحقاد والمطامع والجشع بالنسبة للشرق !

فالحملة الاولى كانت تتألف من قسمين :

القسم الاول : متطوعون احتشدوا تلبية لدعوة البابا « ايربان الثانى » عن طريق الرهبان الذين أطلقهم يجوسون أرجاء فرنسا والراين ليثيروا المشاعر ضد المسلمين . **وتشير العوامل التاريخية الى أن « ايربان الثانى » لم يكن يصدر فى تحمسه عن غيرة دينية ، بل عن طمع دنيوى .. فقد حدثته نفسه بأن تلبيته لاستغاثة الدولة الرومانية الشرقية – التى كانت تعانى من السلجوقيين – تمكن له من فرض نفوذه على الكنيسة الشرقية ، وبذلك تصبح له السيادة الدينية على العالم المسيحى بأسره !**

ويلاحظ هنا أيضا أن تحمس « ايربان » كان فى ظاهره تلبية لنداء امبراطورية بيزنطة ، أى لسبب دنيوى محض !

والقسم الثانى : من الحملة ، كان يتألف من القوات التى بدأ الامراء والفرسان الفرنسيون فى تجميعها فى مارس سنة ١٠٩٦ . وقد كان الحافز السياسى لهؤلاء الامراء أقوى من الحافز الدينى ، اذ كانوا يطمعون فى الكسب الدنيوى أولا .. كان بينهم الامير المغامر ، الذى حرمه قانون الوراثة من ان ينال نصيبا من ملك أبيه – لأنه كان الابن الثانى لذلك الاب – فسعى الى الشرق ينشد امارة وملكا لنفسه ! .. ومن هذه الفئة « هيودى فيرماندوا » – الأخ الأصغر لفيليب الأول ملك

فرنسا ـ و « بوهموند » الذى كان يحلم بامارة شرقيـة .. وغيرهم كثيرون . وكان من أفراد هذه الفئة أيضا ، التـاجر الذى راوده الطمع فى أن يفيد من نقل خيرات الشرق الى بلاده !

واذ كان كل من هؤلاء يبغى لنفسه صيدا ، فقـد كان من الطبيعى أن يدب الشقاق بينهم : فأدرك ((بلدوين دى بويون)) أن ((بوهموند)) يطمع فى أن يتخـذ من (انطاكيـة) عاصمة للامارة التى كان يحلم بهـا ، ومن ثم انطلق ينـافسه ! .. ثم ظهر لهما غريم ثالث من ((حلفائهما !)) هو ((ريمون)) التولوزى ـ الذى وصف بأنه أول أمير شرعى انضم للحركة الصليبية ـ فاذا هو يبادر الى محاولة انشاء امارة لنفسه فى ((طرابلس)) ـ جنوبى انطاكية ـ ليحد من توسع ((بوهموند)) ! .. وكانت اطماع هؤلاء الثلاثة بالذات ، محددة لمجرى الحملة الصليبية الاولى . اذ انتهت بأن أقاموا امارات ثلاث ، كمـا انتهت الى احتلال بيت المقدس ، واقامة مملكة مسيحية لاتينية فيها

ولكن .. لم يكد الصليبيون يعكفون على تدبير نظم الحكم فى هذه المملكة ، حتى تجلى الطابع الدنيوى فى أجلى صوره .. اذ تكشف النزاع بين الكنيسة والدولة على النفوذ ! .. وكان اختيـار « جودفرى دى بويون » ملـكا لهـا ، معززا لنفوذ الفرنسيين هناك . فلما انهارت تلك المملكة فيما بعـد ، تبين أن انهيارها كان راجعا الى أنها لم تؤت القوة المـالية ولا القوة السياسية اللتين تكفـلان لها البقاء !.. « وكانت مفاسـد الحكومة ـ وهى فرنسية ـ أشد وأقوى من فضائل المحكومين » !

وتضيف دائرة المعارف البريطانية الى هذا قولها : ومما يشك فيه ، أن هذه المملكة ـ وهى المملكة الدينية التى قامت على أرض مقدسة ـ كانت تستند الى أسس خلقية)) !.. ذلك لان الولايات الصليبية أنشـأها مغـامرون متعطشـون للكسب .. وكانوا فى سبيل هذا الكسب يذهبون الى أبعـد

« جودفرى دى بويون » ملك المملكة المسيحية فى فلسطين ، وقد وضع على رأسه « اكليل الشوك »

حدود الشطط ، حتى لقد كانوا يغيرون على القوافل - فى أويقات الهدنة - كقطاع الطريق !

الحملة الصليبية الثانية

• ويعود التنافس فيبدو واضحا بين الغربيين فى بداية الحملة الصليبية الثانية . فقد تألفت تلك الحملة من فريقين ،

أحدهما بقيادة « كونراد الثالث » الالمانى ، والآخر بقيادة « لويس السابع » الفرنسى . وقد شاع الخلاف بين قطبيها منذ البداية ، حتى ان كلا منهما سلك طريقا غير طريق الآخر، لنفادى احتكاك الجيشين . وكان كل منهما تواقا الى أن يسبق الآخر ، فكانت النتيجة أن أبيد الشطر الاكبر من الجيشين ! .. حتى اذا اجتمعت الفلول المتبقية منهما فى الارض المقدسة ـ فى سنة ١١٤٨ ـ **انضم لويس وكونراد الى « بلدوين الثالث » ، وقرر ثلاثتهم مهاجمة دمشق . فكان هذا خطأ سياسيا شنيعا ، أدى الى أن استولى « نور الدين زنكى » على دمشق ذاتها ، ففقدت مملكة القدس اللاتينية خير حلفائها . ثم لم يلبث « صلاح الدين » أن اتجه الى توحيد مصر وسوريا فاستغرقه النضال تسع سنوات ، ثم بعدها توطيد سلطانه على مصر وشمال سوريا فى سنة ١١٨٣ . وبذلك اشتد احداق الخطر ببيت المقدس التى لم تكف عن طلب النجدات من الغرب منذ بداية الخطة المصرية !**

وكانت النتيجة الكبرى لهذه الحملة الثانية ، هى أن انتبه المسلمون الى خطر الدعوة الدينية المصاحبة للحملات الغربية ، فأقدم صلاح الدين على استغلال السلاح الدينى من ناحيته ، وسرعان ما انطلقت الدعوة الى « الجهاد » فى مقابل الدعوة الصليبية . وبينما كان طول البلاء قد أوهن حماس اللاتينيين، انطلق لهب التحمس للجهاد متأججا فى صدور الشرقيين ، فلم تلبث بيت المقدس أن استسلمت لصلاح الدين فى ٢ اكتوبر سنة ١١٨٧

الحملة الثالثة

• **ومرة أخرى ، نجد الاطماع الدنيوية فى الحملة الثالثة .** فقد بدأت باستيلاء « كونراد » مركيز (مونفيرا) على مدينة

صور ، ثم راح يستغيث بالغرب ، مستغلا حماس البابا الذى سرعان ما أوفد منـدوبيه يجوبون ارجاء أوربا يدعون الى الجهاد ! .. وكانت أوربا تجتاز احـدى الضـائقات الاقتصادية العامة ، مما أغرى الكثيرين على الانضمام . وأعدت ألمانيا حملة، بينما أعدت فرنسا وانجلترا حمـلة مشتركة . **وقد تجلى الحافز الاقتصـادى فيمـا بذله الملك ((فيليب أوغسطس)) الفرنسي ، والملك هنرى الثاني الانجليزى ، لاغراء المحـاربين على الانضواء الى حملتهما : فقـد فرضـا ضريبة اسمياها ((عشور صلاح الدين)) على من لم ينضموا ،وخففا عن كل مدين انضم للحملة أعبـاء ديونه ، ومن ثم كانت حملتهمـا من اكبر الحملات عددا ، لكثرة من دخلوا فيها فرارا من الضـائقات الاقتصادية !**

وكما أنها كانت أكبر الحملات ، فانها كانت أوفرها نصيبا من الخيبة ،وأحفلها بمظاهر البعد عن الدين والجهاد الدينى الخالص لوجه الله . فان ((فيليب أوغسطس)) و ((هنرى الثانى)) حملا معهما الى الشرق تنافسهما من أجل النفوذ ، فدبت بينهما الغيرة السياسية . حتى لقد اقترح «ريتشارد قلب الأسد» ـ خليفة هنرى على عرش انجلترا ـ أن يزوج أخته «جوهانا» من شقيق صلاح الدين ، ويمكن هذا الشقيق من حكم بيت المقدس والمدن الساحلية المجاورة ! .. فنكث بذلك تحالفه مع فرنسا ، ولو أن الدافع للحرب كان دينيا حقا ، لمـا سعى الملك المسيحى الى محالفة السلطان المسلم ، على حساب ملك مسيحى آخر !

وهكذا كشفت الحملة الثالثة عن انقطاع صلة الحرب ـ التى شنهـا الغرب على الشرق ـ عن البابا ، واصـطباغها بصـبغة سياسية دنيوية خالصة !

المصالح التجارية فى الشرق ، تحول الحملة الرابعة عن هدفها

• **وجاءت** الحملة الرابعة معززة لهذه الصفة . واذا كان البابا «انوسنت الثالث» قد بذل جهودا جبارة ـ فى سنة ١٢٠٠ ـ لحشد هذه الحملة ، فقد كان الباعث الأول له هو محاولته أن يعيد للبابوية سلطانها المفقود على الحركة الصليبية . اما الهدف الأساسى ، فقد انحصر فى أن فرنسا ـ ممثلة فى هنرى السادس ، أكبر ساسة عصره ـ أرادت أن تمضى فى تحقيق مشروعات « فيليب اوغسطس » الاستعمارية فى الشرق !

وهكذا كانت الحملة مشروعا « فرنسيا » فى أغراضها ، وفى جنسية محاربيها ، وفى قادتها .. وقد جعلت هدفها مصر بالذات ، لأنها كانت اذ ذاك ـ كما هى الآن ـ مركز القومية العربية والبعث التحريرى العربى . وقد بدا للمطامع الاستعمارية الفرنسية بجلاء ـ منذ سنة ١١٦٣ ـ ان أى مشروع للسيادة على الشرق لا يمكن أن يفلح ما لم يجعل هدف هجومه : (القاهرة) لا (بيت المقدس) !

وكانت سوريا اذ ذاك فى أيدى المسلمين ؛ فلم يكن ثمة سبيل لأن تتخذها الحملة قاعدة لمهاجمة مصر . ومن ثم رئى أن يتم الهجوم من البحر . ولكن المنازعات السياسية تحولت بهذه الحملة الى القسطنطينية ، « لمهاجمة » الامبراطورية الرومانية الشرقية . . التى كان مفروضا منذ البداية أن الحروب الصليبية انبعثت استجابة لاستنجاداتها !

ومرة اخرى ، يبدو تغليب الطابع الدنيوى على الطابع الدينى .. اذ قامت (البندقية) بدور كبير فى تحويل سير الحملة الى القسطنطينية بدلا من القاهرة . وقد فعلت ذلك لتظفر بامتيازات تجارية من حكومة مصر !

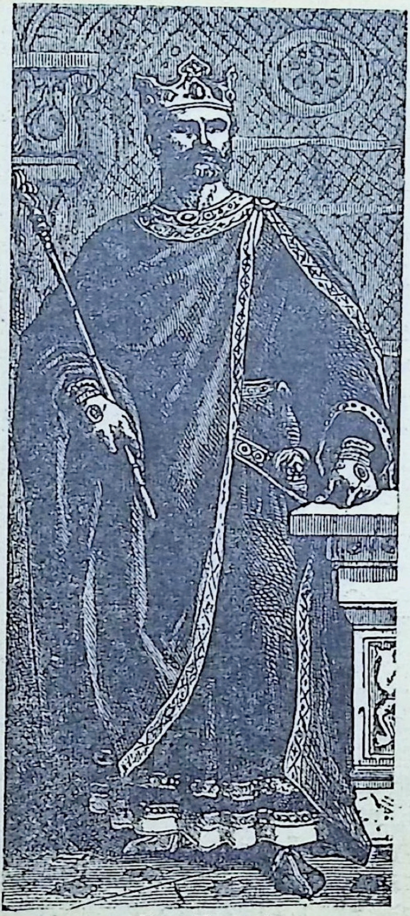

ريتشارد قلب الأسد

وانجلت الحملة الرابعة عن افلات الحركة الصليبية تماما من كل أثر للنفوذ البابوى ، فأصبحت لعبة سياسية وتجارية !

ويصف المؤرخ المعاصر «رينيه سيديللو» دور أهل البندقية فى تحويل هذه الحملة الى القسطنطينية بقوله : « كانت البواعث التى حددت هذه المغامرة العجيبة ، عوامل انسانية أكثر منها دينية . فان البنادقة ـ أصحاب السفن التى استؤجرت لنقل الصليبيين ـ اشتكوا من أن الأجور التى دفعت اليهم كانت أقل من المبلغ الذى نص عليه فى الاتفاق ، وطالبوا بأن يتقاضوا الفرق عينا ، من احدى المدن التى تغزوها الحملة . ومن ثم أتجه الصليبيون نحو (زارا) للاستيلاء عليها ، وهى مدينة على ساحل بحر «الادرياتيك» كانت من أملاك ملك المجر الذى كان منافسا للبندقية فى التجارة ! .. على أن الجنود الصليبيين لم يكادوا يتذوقون الأسلاب ، حتى انساقوا للعب فى الظلام ـ أى التآمر ـ ولهذا ساروا صوب القسطنطينية التى كانت تسودها حال من الفوضى. وسرعان ما استولوا عليها ،وانستهم ضخامة الأسلاب كل شىء عن الحملة الصليبية ! .. بينما استولت البندقية على كريت لنفسها ، وأقام الملوك اللاتينيون فى بيزنطة ، ولم يحفلوا بالأراضى المقدسة » !

الحملة الرابعة تصل الى المنصورة .. ثم ترتد مهزومة !

• **وبعد** أن فشلت الحملة الرابعة كما أسلفنا فى استرجاع سلطان البابوية على الحركة الصليبية ، عاد البابا « انوسنت الثالث » يحاول من جديد ـ مستيئسا ـ أن يحقق الهدف المرموق بتنظيم حملة جديدة ، طمعا فى بسط نفوذه على العالم المسيحى ـ فى الشرق والغرب ـ فاذا فرنسا تستغل سياسته هـذه فى شن حرب تجارية على مصر ، التى كانت قد أخذت فى

الإنتعاش والازدهار بفضل جهود « صلاح الدين » وخليفته « الملك الكامل » .. ولكن الحملة وقفت في زحفها عند المنصورة، في سنة ١٢٢١ . وبدلا من أن تواصل الزحف، انهمكت في مفاوضات لحمتها الطمع ، ولكن هذه المفاوضات لم تؤد الا الى اتاحة الفرصة لمصر كى تنظم قواتها ثم تعاود الهجوم ، مما أدى الى ارتداد الحملة الى دمياط .. واضطرار « بيلاجيوس » ـ الكاردينال الذى كان يقودها ـ الى توقيع معاهدة مع الملك الكامل ، فى سبيل مغادرة دمياط بسلام !

ومن طريف مايذكر بصدد هذه المعاهدة ، أن الفريقين ـ الصليبيين والمصريين ـ اتفقا على تبادل الرهائن كضمان لتنفيذ الاتفاق وتأمين انسحاب الغزاة المهزومين بسلام .. فقدم الصليبيون للملك الكامل ـ كرهينة ـ كلا من ملك (عكا) المسيحى، ونائب البابا، بينما قدم لهم الملك الكامل ابنه « الصالح » وبعض الأمراء . فلما تم الانسحاب ، استرد كل من الفريقين رهائنه ، ثم عاد الملك الكامل الى المنصورة ، حيث احتفل فى قصره بانسحاب العدو ، وغنته احدى الجوارى ـ لهذه المناسبة ـ أغنية طريفة جاء فيها :

ولما طغى فرعون عكا (١) وقومه
وجاء الى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا !
فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

والذى يبحث فى حياة الملك الكامل ، يستطيع أن يعثر على دليل اخر من الأدلة التى توحى بأن العلاقات بين العرب والصليبيين كانت لاتلبث ـ اذا ما استتب السلام ـ أن تتحسن

---

(١) رمز الشاعر بكلمة « فرعون عكا » الى ان ملك عكا الصليبى كان طاغية ، كفرعون !

وتتحول الى محالفات تتنافى مع التعصب الدينى الذى حرص كثير من المؤرخين على أن يلصقوه بالحركة الصليبية .. ففى الوقت الذى كانت فيه مدينة بيت المقدس فى أيدى المسلمين ، عقد الملك الكامل مع « فردريك » ملك الصليبيين آتفاقا ، أطلق بموجبه يد الملك الصليبى فى (دمشق) و (صور) ـ اذا استطاع أن يفتحهما ـ فى مقابل أن يطلق « فردريك » يد الملك الكامل فى بيت المقدس بالذات !.. وهكذا فرط الملك الصليبى فى المدينة التى كان مفروضا انها هدف حملته !

يربحون بالسياسة والمفاوضة ، ما عجزوا عن ربحه بالحرب !

• **واذا** انتقلنا بعد ذلك الى الحملة السادسة وجدنا انها كانت متحررة تماما من النفوذ البابوى .. بل انها كانت الحملة الوحيدة التى لم يباركها البابا ، والتى لم يكتف بأن ينفض يديه منها ، وانما جاهر بأنه يلعنها !.. **ولعل أعجب طابع لهذه الحملة ـ التى حشدها وقادها ((فردريك الثانى)) ملك جرمانيا فى سنة ١٢٢٨ ـ أنها كانت أقرب الى الحملة السياسية منها الى الحملة العسكرية ، فلم تشتبك فى عداء ضد المسلمين!.. بل ان فردريك استطاع ((بالمفاوضة)) أن يستعيد بيت المقدس ، التى عجز السيف طيلة اربعين عاما ـ منذ سنة ١١٨٧ ـ عن استردادها .**

على أن الفرنجة مالبثوا أن فقدوا القدس من جديد فى سنة ١٢٢٤ ، عندما هزمهم المسلمون فى (غزة) ، فكان هذا سببا فى قيام الحملة الصليبية السابعة ـ أو « السادسة » فى الحقيقة، اذا أسقطنا الحملة السابقة من عداد الحملات الحربية ـ ومرة أخرى كانت الغايات السياسية هى الأهداف الأولى للحملة الجديدة : فقد أهابت البابوية بالغرب المسيحى أن يهب لانقاذ

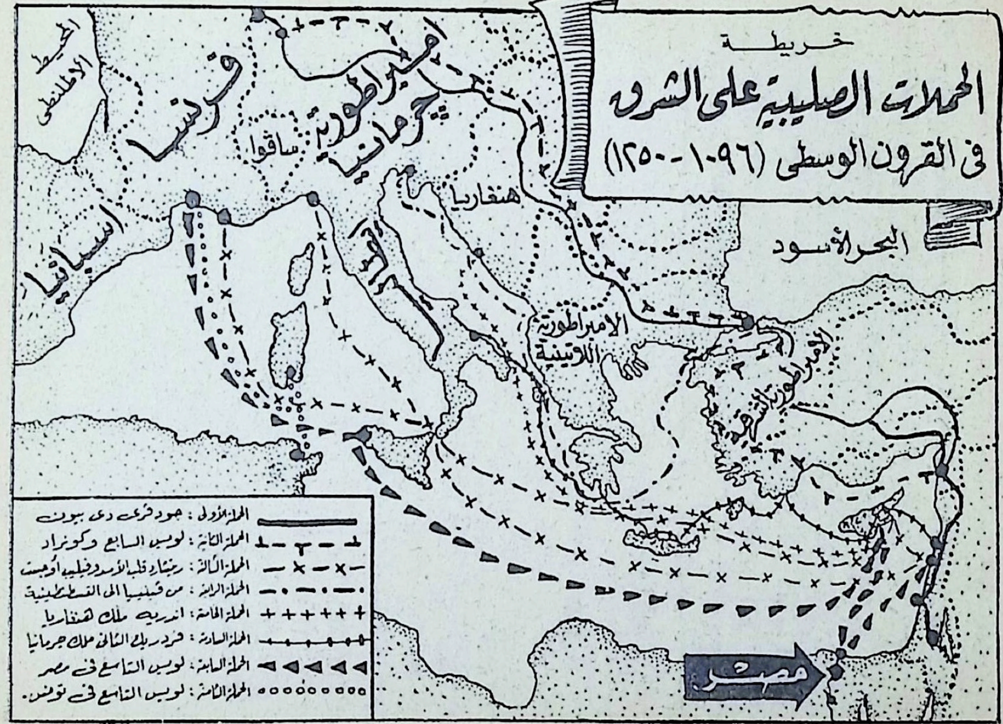
خريطة
الحملات الصليبية على الشرق
فى القرون الوسطى (١٠٩٦-١٢٥٠)
المحيط الأطلنطى
فرنسا
اسبانيا
امبراطورية جرمانيا
ساڤوا
ايطاليا
هنغاريا
الامبراطورية اللاتينية
الامبراطورية الشرقية
البحر الأسود
مصر
الحملة الأولى : جودفرى دى بيون
الحملة الثانية : لويس السابع وكونراد
الحملة الثالثة : ريتشارد قلب الأسد وفليب أوجست
الحملة الرابعة : من فينيسيا الى القسطنطينية
الحملة الخامسة : اندريه ملك هنغاريا
الحملة السادسة : فردريك الثانى ملك جرمانيا
الحملة السابعة : لويس التاسع فى مصر
الحملة الثامنة : لويس التاسع فى تونس.

بيت المقدس ، فاستغل « لويس التقى » أو « القديس » ـ ملك فرنسا ـ هذه الفرصة فى سبيل العودة الى مشروعات فرنسا الاستعمارية .. وكان ان اتجـه الى (دمياط) مستغلا النزاع الذى دب بين المماليك فى مصر ، فاستولى على المدينة ، ثم شرع فى الزحف على القاهرة . بيد أنه لم يكد يصل الى المنصورة ـ فى ديسمبر سنة ١٢٤٩ ـ حتى توقف عن التقدم ، كما فعلت الحملة الخامسة من قبل .. ثم اضطر الى التقهقر ، ووقع فى الأسر ، وارتضى التسليم بمبدأ الجلاء ، بعد أن دفع تعويضا قدره ۸۰۰.۰۰۰ قطعة ذهبية ، فدية عنه وعن أخويه ! ـ (وهذه الحملة هى موضوع الكتاب الذى تقدمه لك مطبوعات كتابى بعد هذه المقدمة)

يتحولون من محاربة أعدائهم ، الى محاربة أنفسهم !

• ويعلق المؤرخ المعاصر «رينيه سيديللو» على حملة لويس التاسـع هذه بقوله : « كانت مشروعات لويس متضـاربة ، متناقضة ، لاتساير روح الزمن .. **اذ كان المسيحيون قد فقدوا ايمانهم بالحركة الصليبية ، فبدلا من أن يتحدوا ضد «البرابرة!» ـ فهكذا أطلق الفرنسيون على أهل الشرق ـ تحولوا يتحاربون فيما بينهم !.. ولم يقتصر الأمر على محاربة اللاتينيين لليونان، بل كان الانجليز يقاتلون الفرنسيين ، وابناء (جنوا) ضد ابناء (البندقية) ، والامبراطورية الرومانية الشرقية ضد البابوية.. وهكذا حلت المعارك القومية وحرب المصالح ، محل الجهاد من أجل الصليب !**

« ولقد فقدت الهيئات والمذاهب الحربية ـ التى رأت النور لاول مرة فى الاراضى المقدسة ، والتى انتشرت فى طول الغرب وعرضه ـ كل معنى لرسالتها الاصلية ، وهى : حماية الولايات المسيحية فى اسيا ، والذود عن الحجاج . . فاذا جنود القديس يوحنا ـ الذين أصبحوا يعرفون فيما بعد باسم فرسان (رودس) ثم فرسان (مالطة) ـ يقصرون خدماتهم على نطاق جزرهم الصغيرة . . واذا (فرسان الهيكل) يتحولون الى أصحاب ثروات ضخمة ، ثم الى ماليين من أصحاب المصارف ! . . واقتطع الفرسان « التيوتون » لانفسهم ـ على حساب بولندا ـ دولة على ساحل البلطيق ، لم تلبث ان قامت على أساسها الدولة البروسية . . وفى كل هذه العمليات لم يكن الايمان ليزيد عن مجرد الكلام . . ولم يعد « الله » أكثر من لواء ، أو رمز !

أراد الغرب أن يغزو الشرق . . فانعكست الآية !

• **نخلص** من هذا البحث كله ، الى القول بأن كثيرا من المؤرخين الحديثين ، يرون ـ من تحليل الحروب الصليبية ـ ان خلع الصفة الدينية على هذه الحروب ينطوى على مجافاة للواقع والحق . . **ذلك لان هذه الحروب لا تختلف عن أية حروب أخرى اعتاد الغرب أن يشنها على الشرق كلما اشتد به الضائقات ، وأعوزته الموارد ، وتطلع الى الاسواق ، وطمع فى مجالات جديدة يفرض فيها نفوذه الاستعمارى ، ويسخرها بمواردها وأهلها لخدمته !!**

.. وهى كذلك مثل أية حروب أخرى اعتاد الغرب أن يثيرها ليوقف الشرق عن تقدمه ، كلما هب من سكونه وراح يعمل جاهدا لكى يتبوأ مكانه تحت الشمس ..

على ان تجريد الحرب الصليبية من الصبغة الدينية لاينتقص من النتائج العظيمة التى خلفتها فى تاريخ الغرب والشرق على السواء . **وأهم هذه النتائج أن الحركة الصليبية بدأت بمحاولة من الغرب لغزو الشرق ، فاذا بها تنتهى الى العكس : اذ استطاع الاتراك ـ فى نهايتها ـ أن يصلوا فى توسعهم الى حوض الدانوب . ولم يحن القرن الخامس عشر حتى كانوا يكتسحون أوربا وآسيا !**

والواقع ان الحروب الصليبية تعتبر تطورا فاصلا فى تاريخ الحضارة الغربية بالذات ، اذ يرى بعض المؤرخين ان الحضارة التى انتشرت فى أوربا بعد هذه الحروب ، جاءت نتيجة التقاء الغرب بالشرق ، وما ترتب على ذلك من معارف أخذها الاول عن الثانى .. وبوجه عام ، نرى أن الحروب الصليبية أدت ـ بالنسبة الى أوربا ـ الى انحلال الاقطاع ، والى نمو المدن تبعا لازدياد التجارة ، والى تقدم الثقافة الاوربية نتيجة التقاء العقلية الغربية بالعقلية الشرقية !

الحروب الصليبية استنزفت موارد الاقطاع !

• **فمن** حيث انحلال الاقطاع ، يجد الباحث فى تاريخ أوربا أن وطأة النظام الاقطاعى كانت قد استفحلت ـ قبيل الحروب الصليبية ـ كما ان الحروب بين الامراء الاقطاعيين كانت مصدر

قلاقل واضطرابات فى الدول الاوربية ، اذ كان كل أميراقطاعى يحتفظ بجيش من الفرسان والاتباع المحاربين . . **فلما نبتت الفكرة الصليبية ، رأت الكنيسة فى هذه الحروب ناحية توجه اليها روح القتال لدى الاقطاعيين .. ورأى الاقطاع فيها ميدانا يوجه اليه ابناءه الصغار ، الذين كان نظام الوراثة يحرمهم من ميراث الامارة ، اذ يقصره على الابن البكر !**

ومن ثم كانت الحملات ــ من احدى نواحى الاعتبار ــ محاولات لاستعمار اقطاعى .. ولكنها ــ من ناحية أخرى ــ أوهنت الاقطاع ، اذ استنزفت الكثير من موارده المالية والبشرية !

البلايا التى أصابت الشرق من جراء تلك الحروب

• **كذلك** كان من نتائج الحروب الصليبية ظهور الشركات التجارية الاحتكارية : الشركات التى تعمل فى التصدير والاستيراد ، وتمتلك المصارف والسفن والاراضى الشاسعة فى الشرق .. فلقد كانت تلك الحملات ــ من ناحية أخرى من نواحى الاعتبار ــ محاولات من الغرب للعثور على طرق جديدة وسهلة للاتجار مع الشرق ، ولاستنزاف ثرواته . وكان من الطبيعى ان تحتاج سلع الشرق ــ التى أخذت فى التدفق على مدن التجارة فى ايطاليا ــ الى أسواق فى طول أوربا وعرضها ، ومن ثم أنشئت الطرق التجارية ، واقيمت عليها المدن لتكون مراكز للتجارة ...

وفوق هذا كله ، كانت الحروب الصليبية أبوابا أطلت منها أوربا على الشرق ، فلما اطمأنت اليه ، اقبلت على ارتياده واكتشافه .. وأوغلت بعثاتها الاستكشافية فى جوف اسيا فى القرن الثالث عشر

ومن هذا نرى أن النتائج الخارجية - أى المتصلة بالشئون الخارجية أو الدولية - التى عادت على أوربا من جراءالحروب

البابا « جريجوار » التاسع

الصليبية ، تتمثل فى كلمات ثلاث ، أصبحت منذ ذلك التاريخ سر بلاء الشرق ، وهـــذه الكلمات أو ((البلايا)) الثلاث هى : الاستعمار ، والتجارة ، والجغرافيا .. او الكشف الجغرافى !

الشرق : المعلم الاول للغرب

• **أما النتائج** التى عادت على دول أوربا فى الناحية الداخلية، فكانت أولاها : تقدم فن الضرائب ، فان أعباء الحروب الصليبية كانت تتطلب نفقات ، وكان لابد للامراء والملوك من أن يتقاضوا هذه النفقات من رعاياهم .. ومن هنا لجأوا الى الضرائب ، وكانت أشهرها ((عشور صلاح الدين)) التى فرضها ((فيليب)) فى فرنسا و ((هنرى الثانى)) فى انجلترا . وقد فرض ((هنرى)) ــ فى تلك الفترة أيضا ــ أول ضريبة على المنقولات عرفتها أوربا

كذلك أسفرت الحروب الصليبية عن تقدم فن الحرب لدى الاوربيين ، **اذ أن اتصالهم بالمسلمين والبيزانطيين مكنهم من ان ينقلوا عنهم بعض أدواتهم الحربية ، كأدوات الحصار ــ وأهمها ((المنجنيق)) ، والقذائف الملتهبة ــ ويرى بعض المؤرخين ان كثيرا من أساليب المبارزة والتحصين واستخدام الدروع ــ التى شاعت فى أوربا بعد ذلك ــ انما اقتبست عن الشرق**

وفى الناحية الزراعية ، نجد أن أوربا أخذت عن الشرق بعض المحصولات التى لم تكن تستنبت هنـــاك ، مثل الذرة والليمون والبطيخ والقطن . كما أخذت عن الشرق المنسوجات

الحريرية ـ الموسلين والحرير الدمشقى ـ واستعمال المرايا ! .. الخ

.. كذلك كان من نتائج الحروب الصليبية ، أنها قربت بين حضارة الغرب وحضارة الشرق ، ودفعت أوربا الى اتصال حى مستمر بعقيدة جديدة ، وحضارة عريقة ، فكان من جراء ذلك ان تفشت روح التسامح الدينى والفكرى فى الغرب ، وان نشط البحث الجغرافى والدراسات القائمة عليه . كما اشتد الاقبال على تسجيل التاريخ وأحداثه

كذلك نقل الصليبيون عن العرب العلوم الرياضية التى كانوا قد برزوا فيها ، لا سيما الجبر وحساب المثلثات . واستطاع الراهب « رايموندوس لولوس » ان يقنع مجلس (البندقية) بانشاء ست مدارس للغات الشرقية فى أوربا ، فى سنة ١٣١١

والآن ، بعد هذه المقدمة التمهيدية ، تخلى «مطبوعات كتابى» بينك وبين مطالعة الكتاب التالى عن هزيمة لويس التاسع وأسره فى المنصورة ، وما اقترن بذلك العصر من ملابسات تاريخية أثناء حكم المماليك لمصر .. الى آخر التفصيلات الشائقة التى ستطالعها فيما يلى :

فرنسا الجريحة على ضفاف النيل!

للمؤرخ المستشرق "ادوين جون ديفيز"

الفصل الأول

ست حملات أوربية ضد مصر !

◆ شنت أوروبا على مصر حروبا متوالية هوجاء ، أشعل نارها ذلك الصراع الديني العنيف ابان القرون الوسطى بين المسيحية والاسلام . ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٠٩٦ ، ١٢٥٠ للميلاد ، أنفذ الأوربيون ست حملات كبيرة بلغت شواطيء مصر وأغارت عليها - عدا كرات أخرى أقل أهمية - (ولو أن احدى تلك الحملات تحولت في الواقع عن الغرض الحقيقي من اعدادها ، الى هجوم على امبراطورية بيزنطة « المسيحية » ، ولذا فلا يصح أن ندرجها في عداد الحروب الصليبية) .

ولقد كان لكل من تلك الحروب أبطالها الذين خلدهم التاريخ ، فالحرب الصليبية الأولى تقترن بأسماء : « جودفرى دى بويلون » ، و « تانكريد » ، و « ريموند » ، و « بوهمند » .. والحملة الصليبية الثانية كان قائداها العاثرا الحظ هما « كونراد » عاهل ألمانيا ، و « لويس السابع » ملك فرنسا .

أما الحملة الثالثة ، فكان أبطالها أولئك المحاربون البواسل ، وأرباب السياسة الأفذاذ : « فردريك بارباروسا » أمبراطور الدولة الرومانية الغربية ، و « فيليب أغسطس » ملك فرنسا ، و « ريتشارد قلب الأسد » ملك انجلترا .. ولكن النتيجة التى آلت اليها الحملة ، لم تكن لتتناسب مطلقا مع التضحية العظيمة ، والمخاطرة الهائلة بالروح والمال ، ولا مع مظاهر البسالة التى أبداها قادتها : فقد مات « فردريك بارباروسا » غريقا في سنة ١١٩٠ في نهر (كاليكادنوس) الممتد في سهل (سيسيليا) . والجيش الجرماني الهائل الذى كان يلقى

« فردريك باربا روسا » •• أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة ، وقد مات غريقا أثناء الحملة

الرعب فى قلوب أعدائه ويخرج منتصرا من كل معركة يخوضها ضد المسلمين ، قد تساقط رويدا حتى فنى عن آخـره فى طريقه عبر آسيا الصغرى • ثم نشب القتـال بين ملكى فرنسا وانجلترا •• وتخلى فيليب أغسطس عن الصليبيين •• ونزح ريتشارد قلب الأسد مع فلول جيشه عن بلاد الشام ، بعد كل ما أتاه من ضروب الاستبسال الفائقة ، التى غدت فيما

بعد منبعا خصبا لبديع الشعر والقصص • وهكذا أحاطت بالحملة الأحداث واكتنفتها المحن ، فتراجعت عائدة تجرز أذيال الفشل •• وكان كل ماجناه أصحابها من هذه الحرب الضروس المروعة ، هو هدنة قصيرة الأمد ، مجهولة العاقبة !

الحرب الأهلية في مصر أغرت اوروبا بغزوها !

◆ وأما الحرب الصليبية الرابعة ، التى أعلنت فى عام ١٢٠٢ ، فقد بعث شرارتها وأضرم نيرانها ذلك الحماس الملتهب المتدفق ، والنشاط والقوة والعزم ، التى عرف بها جميعا واحد

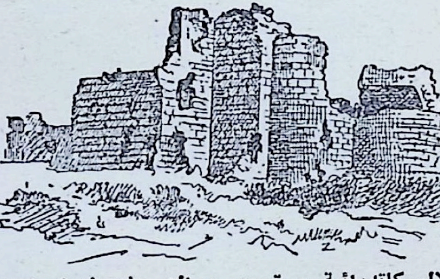

اطلال كاتدرائية « تسير » التى دفن فيها بادباروسا

من أشهر بابوات روما وأرفعهم شأنا ، هو «أنوسنت الثالث» •• فقد أمدها بما تحتاج اليه من معدات القتال ، وبعث بها على أن تكون غايتها الرئيسية هى مصر ! •• وقد كانت ثمة أسباب عديدة ووجيهة لاختيار هذا البلد بالذات هدفا للهجوم : منها أن المصريين كانت قد أنهكتهم الحروب الأهلية التى نشبت بين ابناء صلاح الدين ، ذلك النـد العظيم للملك ريتشارد قلب الأسد • فضلا عن أن الانخفاض الذى اعترى فيضان النيل لمدة ست سنوات متعاقبة كان سببا فى حلول القحط والوباء

اللذين استنزفا ثروة مصر واوديا بقوتها ، ولم يكن لمصر في ذلك العهد أسطول تصد به عن نفسها عادية الغزاة ، فكان من السهل اجتياحها بأقل مجهود ، وفي أقصر وقت ٠٠ في حين أن ثروتها الطبيعية ومواردها الخصبة كانت خير عوض لما قد تتكبده الأمة المغيرة من خسائر في المعدات ٠٠ كل هذه كانت اسبابا شجعت رجال الحملة وملأت نفوسهم بالآمال ٠ ولكن الجشع والغدر والخيانة التى تجلى بها أهل البندقية قد أفسدت كل خطة وقضت على كل أمل ! ٠٠ وعبثا حاول البابا بجهوده العظيمة أن يتغلب على طمع القواد ومكرهم وخداعهم ، ومن ثم انقلب شأن الحملة من الغرض الذى أرسلت من أجله الى سلوك أحط أنواع القرصنة وسبل السطو المعروفة عن قطاع الطرق : فأغارت الجيوش المتمردة على أراضى امبراطورية بيزنطة ، واذا بالقسطنطينية التى كانت خلال ثمانية قرون حصن المسيحية المنيع ضد الشرقيين والبرابرة الشماليين ، تحاصر على أيدى أولئك المسيحيين أنفسهم ، وتسطو عليها عصاباتهم ، فتنهبها عن آخرها ، ثم تلتهم ألسنة النار أكثر معالمها !

هزيمة أخرى ٠٠ رغم مذابح دمياط !

◆ وفى عام ١٢١٨ أغار على مصر ـ للمرة الخامسة ـ مائتا ألف رجل من الفرنجة ، وألقوا مراسيهم بالقرب من دمياط على المصب الشرقى للنيل ٠٠ وكانت دمياط محصنة تحصينا محكما ، فبالرغم من وطأة الوباء والجوع اللذين كانا يأخذان بخناق الحامية المدافعة عنها ، فقد ظل المغيرون مدحورين تحت أسوارها قرابة عشرة شهور ، ولم يستطيعوا اخضاع المدينة الا باللجوء الى أفظع أنواع الوحشية ، والتجرد عن كل عاطفة انسانية ـ تلك الخلال التى يبدو أنها أصبحت طابعا للحروب الصليبية ـ فقد دخلوا المدينة دخول الضوارى ، وراحوا

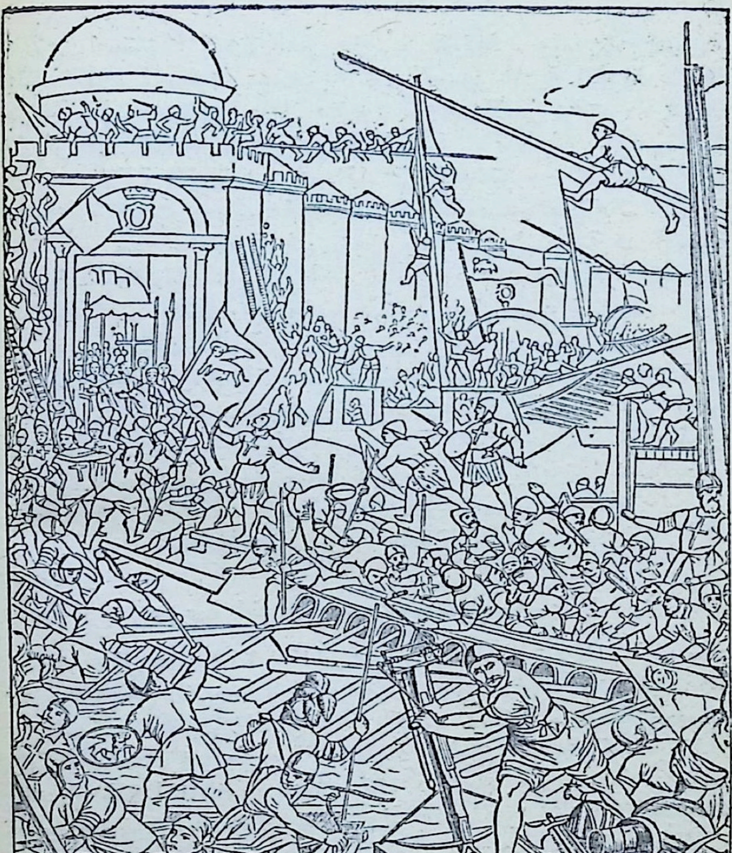

هجوم الصليبيين على القسطنطينية فى سنة ١٢٠٤

يضربون بسيوفهم فى كل جانب ، وأقبلوا على أهلها المناكيد قتلا وذبحا ، حتى لم يبق فى المدينة انسان حى ! •• ولكن هذه المجزرة كانت خاتمة نصرهم ، اذ فاجأتهم مياه الفيضان فحصرتهم فى أماكنهم ، وأحدقت بهم قوات المسلمين ، وفتكت بأجسادهم الأمراض والأوبئة ، فغلبوا على أمرهم •• وعادوا أدراجهم نازحين عن البلاد ! •• وكانت النتيجة الوحيدة لتلك الملحمة بما أريق فيها من دماء ، وما ذيق فيها من ألوان البؤس والذل ، هى بضعة امتيازات قليلة منحت على أثرها للحجاج المسيحيين ، واسترجاع البقية المزعومة من صليب المسيح •

الشرق يمنح وده بالتفاهم •• لا بالحرب !

◆ وفى عام ١٢٢٨ نزل « فريدريك الثانى » ملك جرمانيا الى سوريا بقوة أقل عددا ، ولكنها أحسن تدريبا وتنظيما من رجال الحملة السالفة • ومع أن البابا جريجورى الثالث كان قد حرمه من بركة الكنيسة ، وقاومه رجال الدين مقاومة عنيفة ، فانه نجح فى اكتساب امتيازات للمسيحيين المقيمين ببيت المقدس أعظم بكثير مما اكتسبته أية حملة سابقة •• ذلك أن التنازع الطويل المدى الذى كان قد بلغ أشده بين الزعماء الشرقيين قد أدى الى ضعفهم وانحلال قوتهم •• ومن جهة أخرى فقد كان لفردريك فى قلوب المسلمين منزلة خاصة وتقدير عظيم ، مما وفقه الى الحصول من الملك « الكامل » على حق استرداد مدائن (أورشليم) و (بيت لحم) و (الناصرة) و (صور) و (صيدا) ، والى ابرام معاهدة مع الملك يتمتع بموجبها المسلم والمسيحى فى بيت المقدس بقسط متساو من الحرية الدينية والمدنية • وقد حصل فردريك على كل هذا بطريق المفاوضات السلمية والتفاهم المتبادل •• وبلا قتال !

واذن فقد كان لهذا الملك منزلة عظيمة عند المسلمين ، وكان

موضعا لاحترامهم وتقديرهم ، وكان له رعايا مسلمون كثيرون في صقلية وأبوليا ، حتى لقد اعتبروه نصف مسلم ، ولكنهم يعزون هذه الشهرة التى اشتهر بها الى حرية فكره وتجرده عن التعصب الدينى ، وعلى الأخص الى العداء المرير الذى كان يكنه للباباوات !

الحملة التى جلبت على قوادها الكوارث !

◆ أما الحملة الصليبية السادسة ، فكانت تحت قيادة « لويس التاسع » ملك فرنسا ، الملك الذى كانوا يلقبونه « بالقديس » ، والذى كان موضع اعجاب شعبه ومبعث فخره ،

« فيليب اغسطس » .. ملك فرنسا الذى تخلى عن قوات الصليبيين

ولو أن نهاية حملته كانت أسوأ نهاية ابتلى بها جيش محارب : فقد هلك جيشه الهائل عن آخره ، مابين جريح وذبيح ‥ واسر الملك واثنان من أشقائه ، والشقيق الثالث جزت رقبته ! ‥ وسيق آلاف من نبلاء فرنسا وصفوة محاربيها عبيدا أذلاء ‥ وأجبر عدد هائل ممن وقعوا فى الأسر على النكوص عن دينهم . وأما القلائل الذين نجوا بحياتهم وحريتهم فقد دفعوا نظيرعما فدية فادحة ، وكان الملك هو الذى التزم بأدائها ‥ تلك هى الصورة المروعة التى توحيها الينا ذكرى الحملة السادسة التى جعلناها موضوع هذا الكتاب

ولحوادث هذه الحملة مؤرخون ممتازون ، فى مقدمتهم السير « دى جوانفيل » ، خدين الملك ورفيقه فى القتال ، وواحد من أصدق مؤرخى القرون الوسطى . وتعزز ماجاء بمؤلفاته كتب « المقريزى » و « أبو الفداء » و « جمال الدين » وغيرهم من مؤرخى العرب الذين لم يعرفهم العالم الأوروبى الا منذ عهد قريب ، حيث ترجمت مؤلفاتهم الى اللغات الأخرى ، وكشف بذلك النقاب عن رأى الجانب الاسلامى فى الحروب الصليبية . فالمؤرخون العرب يلقون ضوءا على هذه الحروب الدامية يختلف جد الاختلاف عن ذاك الذى اعتدنا ـ نحن الغربيين ـ أن نلقيه عليها .

مصر مقبرة الغزاة ‥ دائما !

◆ والخلاصة ان خططا عديدة وضع تصميمها فى أوروبا لغزو مصر ، قبل حملة عام ١٢٤٩ ، وان محاولات متوالية وقعت بقصد تنفيذ هذه الخطط ‥ فكانت أوروبا لاتنى عن التفكير فى ذلك المشروع الذى شغلها زمنا طويلا . ولا غرو فان فتح بلاد كمصر ، لو أنه تحقق فى ذلك الحين ، لكان ضربة شديدة على العرب ! ‥ وقد زاد الأوروبيين تشبثا بهذا الحلم ، عرفانهم أن مصر سهل مكشوف منبسط ومن الهين

غزوه ، فليس ثمة حدود طبيعية تحميه .. ليس له سلاسل من الجبال الشاهقة ، التى كانت فى بقاع كثيرة من الأرض مهد الحرية وباعثة جذوتها ، فطالما مكنت الأمم من صد كرات الغزاة . أما الأمل الذى كان يعقده الأوربيون على معونة المسيحيين فى مصر ، فقد كان أملا خاطئا ، لأن هؤلاء كانوا مسالمين ، من جهة ، وحتى ان كان فى مكنتهم المعاونة على أى صورة للغزاة الفاتحين ، فقد كان هذا يتوقف قبل كل شيء على مقدار ولائهم لهؤلاء الفاتحين ، ولم يكن هذا الولاء موجودا ولا متوقعا من أقباط مصر ، أولئك الذين كانوا على الدوام ذوى عقيدة متطرفة ، وضالين عن جادة الدين فى نظر الكنيسة الرومانية ، مما جعلهم مكروهين فى الأوساط الأوروبية !

ولكن لم يستطع أحد فى أوروبا أن يحقق هذه الآمال المعقودة على فتح مصر ، أو يحطم الجبهة الاسلامية القوية ، بل لم يكن فى استطاعة أحد من شمال أوروبا أو جنوبها ، أن يقيم فى هذه البلاد اقامة المستعمرين . فالواقع أن مصر لا يمكن أن تخضع لحكم أجنبى زمنا طويلا ، اذ سرعان مايغادرها فاتحوها بعد حين !

وتكاد تكون هذه النظرية قاعدة عامة ، فحتى الحكام المماليك الذين كانوا يسيطرون على مصر فى ذلك الحين ، من المعروف فى التاريخ أنه لم يكن فى استطاعتهم استيطان هذه البلاد الغريبة عنهم ، ومن ثم لم يكن لهم عائلات مستقرة ، وانما كانوا يحرصون على حفظ نوعهم بما يستجلبونه باستمرار من أسواق الرقيق المنتشرة حينذاك فى سواحل شرقى ايطاليا وأواسط آسيا .. وحتى الى يومنا هذا ، الذى تحسنت فيه طرق المواصلات وارتقت العلوم الطبية والصحية ، فان استعمار الأوروبيين لمصر على وجه الاستقرار يبدو مستحيلا ! .. وأما الشعب الوحيد الذى نجح وتضاعفت سلالته فى هذه البلاد ، فهم المصريون أنفسهم ، الذين بقوا

« ريتشـارد قلب الأسد » •• ملك انجلترا الذى
كان يتبادل التقـدير مع عدوه صلاح الدين الأيوبى

مستقرين فى بلادهم منذ عهد الفراعنة !

فمصر قد تؤول برهة من الزمن الى حكم الأجانب ، ولكن الثابت أنها تعود مرة أخرى الى أيدى أهلها المصريين • ولن يمكن لشعب أوروبى أن يزرع أرض النيل ، أو يصيب بين ظهرانيها فلاحا !

شخصية الملك « لويس التاسع » •• فى نظر شعبه

• كانت فرنسا فى عام ١٢٤٩ ماتزال دولة اقطاعية كبيرة • ولم يكن للملك فيها ذلك الخطر الذى يسيطر به على كل شأن

من شئونها ، حتى لقد كان كثير من رجال حاشيته أوفر منه ثروة وأقوى نفوذا . وأما حالة الشعب فكانت أعظم يسرا ورخاء من حالة شعوب الكثرة الغالبة من الأمم المجاورة لفرنسا .. ونبلاؤها كانوا ذوى حيوية وأبناء حرب ، وقد أبدوا فى حروب صليبية متعددة اخلاصهم وولاءهم للرسالة التى كلفوا بأدائها ، وأظهروا جرأة وشجاعة فى القتال .

أما شخصية الملك الشاب لويس التاسع ، فيمكن رسم ملامحها من خلال صفحات الكتاب الذى دبجه عنه «دى جوانفيل» ، وقد وصفه فيها بأنه « الملك التقى النقى ، الصالح الصادق ، الموصوف بالبسالة والاقدام ، وبالرجولة والعزة ، والمحفوف بمخايل النبل وشرف المحتد .. ذلك الملك العفيف اللطيف ، المنزه عن كل الدنايا ، الثابت فى كلمته وعقيدته ، والأمين على عهده .. ملك مرهف الاحساس ، تشيع فى نفسه السماحة والرحمة ، وتبدو عليه بشاشة وصفاء .. »

قد يكون ذلك اطراء من صديق معجب ومحب ، ولكنه فى الحق اطراء لا يجافى الحقيقة ، فحسب الملك أن أعظم اخطائه ، وهى تعصبه الدينى ، لم يكن يعد خطأ فى ذلك الحين ، بل كانوا يعتبرونه من أجله رجلا مخلصا لدينـــه ، وابنا بارا بكنيسته !

ومن الطريف أن « دى جوانفيل » ، الذى أطنب فى امتداح فضائل ملكه ، وطيب خصاله ، لم يعطنا الا اشارات قليلة خاطفة عن جمال مظهره وحسن سيمائه . فاستمع اليه ، فى احدى المناسبات ، اذ يصف المعركة الأولى أمام المنصورة ، فيقول : « شاهدت الملك وقد وصل مع حاشيـــته ، وكانت الأرض تهتز بأصوات النفير وضربات الطبول .. فسار حتى بلغ مرتفعا من الرمال ، وهنالك وقف بين أركان حربه يشاهد عن كثب سير القتال .. فأقسم أننى قط مارأيت رجلا أبهى جمالا منه تحت درع المحاربين .. وقامته الفارعة المهيبة تضفى

على سيمائه النبل والسلطان ، وخوذته المطلية بالذهب موضوعة على رأسه فى رشاقة وجمال ٠٠ وصدقنى اذ أقول ، أبدا ما أبلى قائد بمثل ما أتاه الملك فى تلك المعركة من ضروب البسالة والاقدام ٠ بل لقد قيل انه لولا نضاله وجرأته حينذاك لانهزم الجيش بأجمعه ، فقد كان يلقى بنفسه فى كل معمعة ، ويتصدى لكل ضارب ، ويسارع الى نجدة كل رجل من رجاله يراه فى ضيق ٠٠ والسيف فى يده سريع بتار ، وهو ينازل به ويناضل ، ويكر ويفر ، ويصمد وينتصر ٠٠ فياله من منظر يأسر اللب ويسر القلوب ! »

وفى المعركة التالية ، حين قهرت فرقة الكونت دانجو ـ شقيق الملك ـ وتقهقرت ، كتب دى جوانفيل يقول : « وطارت الأنباء الى الملك بالخطر المحدق بأخيه ، فما تزعزع ، ولا أوهن من عزمه الخبر المروع ٠٠ ولم ينتظر العون من أحد ، فان هى الا لحظات حتى كان عنان الفرس فى يده ، ومهمازه فى جنبه ، وهو يحث الخطى ، ناهبا الأرض به الى حيث كان أخوه فى معمعان الملحمة ، وهناك انبرى لمهاجميه يسدد الى صدورهم أفتك الطعان ، ويلقى بنفسه حيث يلوح النصر راجحا للأعداء ، فيخوض الغمار جريئا باسلا حتى يميل الى جانبه الميزان ٠٠ ومازال على هذه الحال حتى تكاثرت فى جسمه الطعنات وأثخنته الجراح ، ولكنه مابرح يصول ويجول ، حتى أنقذ حياة أخيه ، وصد الأعداء »

فيما عدا تعصبه الدينى ، كان ملكا صالحا

◆ ويصف « جوانفيل » أخلاق الملك وميوله وصفا دقيقا فيقول : « انه أحب الصدق بدرجة عظيمة حتى مع أعدائه ، فما قال الكذب قط ، ولا حنث فى عهد قطعه على نفسه بازائهم ٠ وكان عفيف النفس عن الطعام ، فما سمعته مرة واحدة فى حياتى يبدى تلذذه من مأكل أو شراب ، ككثير

من الأثرياء والمترفين ، وانما كان يجلس ويتناول مايقدم اليه فى تؤدة وهدوء .. وكان فى كلامه عف اللسان ، فما سمعته قط يتفوه بكلمة معيبة ، أو يلعن الشيطان فى كلامه كما اصبح الناس يفعلون فى العادة .. تلك العادة التى أعتقد أنها لاترضى الله ..

« ولقد لازمته زهاء اثنتين وعشرين سنة ، فما سمعته أبدا طيلة هذه المدة – وتحت تأثير أى لون من ألوان العـــواطف والأحاسيس – يقسم أو يجدف على الله أو السيدة العذراء أو أى قديس من القديسين .. وانما حسبه عندما يريد أن يؤكد

لويس التاسع ، ملك فرنسا الذى يلقب بالقديس

أمرا أن يقول : « حقا انه كذلك ٠٠ أو ٠٠ بالحق ليس هو هكذا ٠٠

« وكان من المستحيل أن ينكر ربه أو يجحده من أجل أى اعتبار دنيوى مهما بلغ ، حتى انه حين أراد سلاطين مصر وأمراؤها أن يجعلوا نكرانه لعقيدته شرطا للصلح ، رفض كل الرفض ، ولما علم أن هذا هو قرار المسلمين الأخير ، أجاب قائلا انه يفضل الموت على أن يقترف هذه الجريمة ٠٠

« ولقد كابد ذلك الملك الصالح مشقة كبيرة فى اقناعى بأن أؤمن ايمانا ثابتا بالتعاليم التى أعطاها الرب لنا ، فكان يقول لى : اننا يجب أن نصدق توا وبلا أدنى مناقشة ، كل كلمة من هذه التعاليم ، حتى اذاابتلينا بما عساه يرتكب ضد أشخاصنا فلا ينبغى أن نقول أو نفعل مايخالف أوامر الله ونواهيه ٠ وكان يقول ان الايمان بالله يجب أن يكون أكيدا وصادقا وعميقا ٠٠ قال ذلك مرة ، ثم سألنى عما اذا كنت أعرف اسم والدى ، فقلت ان اسمه سيمون ٠ فقال لى وكيف عرفت ذلك ؟ فأجبت اننى واثق منه ومتأكد تمام التأكيد ، لأن والدتى قد ذكرته لى مرات عديدة ٠ وحينئذ قال الملك انك يجب أن تتأكدأيضا وتثق تمام الوثوق بتعاليم المسيح التى ذكرها لنا تلاميذه وقديسوه » ٠

الفصل الثانى

حالة مصر الاجتماعية والسياسية
عند وصول الحملة

◆ لم يذكر « دى جوانفيل » شيئا عن مؤتمر ليون ، الذى أعلنت فيه الحرب الصليبية « السابعة » ، ولا عن الاستعدادات التى تمت فى فرنسا للقيام بالحملة ، وانما ذكر فقط أن الملك أبحر من مرسيليا فى ١٥ أغسطس سنة ١٢٤٨ ، وأن أسطولا ضخما قد أعد لنقل الجنود تحرسه قوة عظيمة من سفن القتال . أما من أين استؤجرت هذه السفن وهل هى من (بيزا) أو (جنوه) أو (البندقية) ، أو أنها أعدت خصيصا فى احدى موانى شمال فرنسا ، فهذا مالم يبينه جوانفيل .

وقد كانت حالة مصر السياسية والاجتماعية فى القرن الثالث عشر لا تختلف عن حالتها التى كانت عليها فى الأيام الأولى من حكم محمد على (أى فيما بين عامى ١٨١٥ ، ١٨٢٥) . كانت غالبية الشعب من الفلاحين ، الذين وان لم يكونوا عبيدا بمعنى الكلمة ولكنهم فى الواقع كانوا مستعبدين للسلطان أو الأمراء المماليك ، فلم يكونوا ــ مثلا ــ يملكون اراضيهم ملكا كاملا أو مؤبدا ــ لأن هذا النوع من الملكية لم يعرف فى مصر الا منذ عهد قريب ــ وكانوا دائما فى الواقع مزارعين مسالمين ..

وقد حكمت مصر ــ منذ أن غزاها الفرس ــ بواسطة سلالات أجنبية ، واحتلتها حاميات من غير أبنائها : فمنذ سنة ٩٦٩ تقريبا الى سنة ١١٧١ حكمتها أسرة العلويين (الفاطميين) التى ادعت الخلافة ، وعرف ملوكها بالخلفاء فى مصر وشمال

افريقيا وصقلية ـ (الى أن اغتصبها منهم النورمانديون) ـ وكان أول خلفاء هذه الأسرة هو المعز لدين الله الذى جاء من بلاد المغرب • وكان حكم هؤلاء الخلفاء ـ على غير المعتاد ـ طويل الأمد ، هادئا ، موفقا ، تظلله السكينة والسلام•وكانت قوات جيوشهم مؤلفة من المغاربة والأحباش والسودانيين ••

صلاح الدين الأيوبى ••• البطل العربى الذى هزم جيوش الصليبين ، ونال تقدير قادتها !

وقد أصبحت القـــاهرة فى ابان حكمه مدينـــة رائعـة ـ ولو أنها فى أواخر عهدهم فقدت كثيرا من رونقها وبهائها ، وتخرب جزء كبير منها ـ ولا شك ان الشعب كان قد نقص تعداده وقلت ثروته ، نتيجة للخسائر الفادحة التى تكبـــدها المسلمون فى الحرب الصليبية الأولى ، ثم نتيجة للمجـــاعة المروعة والوباء الشنيع اللذين تسببا عن الانخفـــاض فى فيضان النيل فى عهد الخليفة المنتصر بالله ٠

صلاح الدين يحكم مصر ٢٤ عاما مجيدة

◆ ولكن على الرغم من هذه الخسائر ، فقد روى « وليم أوف تير » نقلا عن المدعو « هيوجوس أوف سيسيـــاريا » ، أحد المبعوثين الى بلاط الخليفة « العادل » ، أن هذا الأخير رأى كثيرا من مظاهر الترف الفاخرة والبذخ المنقطع النظير تملأ قصور الخليفة « العاضد » آخر خلفاء الفاطميين فى مصر ، وقد تولى الحكم حوالى عام ١١٦٠ ولكنه لم يكن متمتعا بالســـلطة الحقيقية فى البلاد ، بل كانت هذه السلطة كلها فى يد وزيره « صلاح الدين » ـ مؤسس الأسرة الأيوبية فى مصر ، والذى عادت مصر بنفوذه الى المذهب المعتدل فى الاسلام ، وخضعت للخليفة العباسى فى بغداد ـ وأما الخليفة العاضد فقد كان فى الواقع سجينا فى قصره بالقاهرة ، ولم يكن فى استطاعته مبارحته ! ٠٠ وعلى الرغم من أنه كان يعامل بـكل مظـــاهر الاحترام ، الا انه لم يكن حتى على علم بأن الخطبة لم تغـــد تلقى فى المساجد باسمه بل أصبحت تلقى ـ بأمر صلاح الدين ـ باسم خليفة بغداد !

وقد غدا صلاح الدين وزيرا ـ وفى الواقع ملكا لمصر ـ فى سنة ١١٦٨ ٠ وكانت أخلاقه النبيلة السامية مشهودا بها حتى من أعدائه ٠ فقليلون هم الذين يضارعونه فى متانة أخلاقه ، وقوة شخصيته ، وحسبه أن الحملة الصليبية الثالثة ، التى

كانت أضخم قوة واجهت المسلمين ، والتى اتحدت فيها جيوش فرنسا وألمانيا وانجلترا على مهاجمته ، لم تستطع مع ذلك أن تتغلب عليه ! ٠٠ وقد مات صلاح الدين منتصرا ، أو على الأقل غير مهزوم ، بعد حكم مجيد لمدة أربع وعشرين سنة ٠ وكان حفيده السلطان نجم الدين صالح هو الذى حكم مصر فى وقت وصول حملة لويس التاسع ، التى سنتحدث عنها فى هذا الكتاب ٠

وبتغير الأسرة الحاكمة تغيرت حامية مصر أيضا ، فحل محل المغاربة والأحباش جنود من الكرديين ، والسوريين والعرب ٠ ولكن السلطان الحاكم أدخل تعديلا خطيرا فى هذه القوات ، كان هو السبب فيما بعد فى زوال سلطة أسرته ، وذلك أنه ـ لتخوفه من العنصر العربى بين رعاياه ـ اختص بعنايته كتيبة من العبيد المجلوبين بطريق الشراء كانت تبلغ ثمانية آلاف مقاتل ـ ثم ازداد تعدادها بالتدريج الى آلاف عديدة ـ وقد رفع السلطان شأن هذه الكتيبة فوق مرتبة سائر جيشه ، وجعل منها حرسه الخاص ـ وكانوا يسمون هذا الحرس حينذاك « حلقة السلطان » ٠

المماليك كانوا عبيدا اتراك الجنسية ، اشتراهم المسلمون

◆ **وكان** هؤلاء الجنود العبيد أولى بأس وشجاعة ، وذوى براعة نادرة فى امتشاق الحسام ، واستعمال القوس والرمح ، وكانوا فى فنون الفروسية لا يشق لهم غبار ، وقد وقفوا حياتهم على خدمة مولاهم الذى رفعهم الى أعلى المراتب وغمرهم بالأجور السخية وأحاطهم بكل مظاهر الفخامة والأبهة ، وسلحهم تسليحا يفوق كل حد ، حتى لقد أصبحوا يؤلفون أعظم جيش منظم فى العالم حينذاك ، اللهم الا أن يضارعهم فى نظامهم حرس الأباطرة البيزنطيين !

وكان مقر ثكناتهم بجزيرة (الروضة) ، التى تتوسط

النيل قرب القاهرة ، (ولذا فقد سموهم «المماليك البحريين» كما اطلقوا عليهم أيضا « الصالحية » ، نسبة الى مـولاهم نجم الدين صالح • وتسميتهم بالمماليك مشـتقة من الفعل العربى : ملك ، يملك) وهم فى الغـالب أتراك الجنسية ، ممن اشتراهم المسلمون أطفالا من أسواق الرقيق بأواسط آسيا ، وكانت غزوات المغول الوحشية قد غمـرت بالرقيق جميع أسواق آسيا الاسلامية • وقد جلبوا ولقنوا الفنـون الحربية ، فلما بلغوا مبلغ الرجال عتقهم أسيادهم •

وقداختلف مؤرخو العرب فى بيان تعداد هـذه الفرقة المشهورة ، والظاهر أن نهاية ما بلغته قواتها كان أربعة وعشرين ألف رجل ، (على عهد السلطان محمد قلاوون الثانى) ، ولو أن

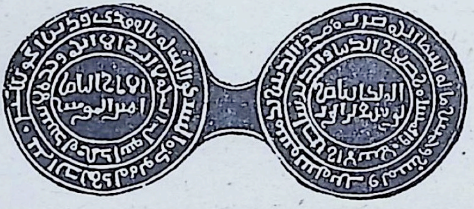

قطعة من النقود ضربت فى عهد صلاح الدين الأيوبى

نصف هذا العدد كان مشتتا فى مدائن مصر المختلفة ، فلم يكن فى القاهرة سوى اثنى عشر ألفا ــ وفى رواية أخرى سبعة آلاف جندى ــ مستعدين للعمل عند أول اشارة •

ويبدو أنهم لم يكونوا يرتدون نمطا واحدا من الملابس ، بل كانت كل كتيبة أو « آلاى » تتقلد « البلازون » او الشارة العسكرية الخاصة بها والتى يسمونها « رنك » • وهى تتميز بلون من الألوان وتتخذ شكلا هندسيا معينا ، ولكنها قد تكون أحيانا على شكل زهرة ، أو قد تكون بصورة حيوان : فمثـلا

كانت شارة السلطان « بيبرس » على شكل أسد ، وقد نراها كذلك مسكوكة على العملة المضروبة فى ذلك العهد • وكانت شارة السلطان « قلاوون » على شكل بطة ، وتسمى بالتركية « كابجاك » • ولكن كان للمماليك البحرين الى جانب ذلك شارة أخرى على نمط هندسى مخصوص وبألوان متباينـــة ، وقد أصبحت هذه الشارة الأخيرة رمزا محبوبا لدى المصريين ، حتى لقد تقلدها بعضهم موشومة على أجسادهم !

« جنود مصر وسوريا هم أبرع محاربين فى العالم » !

◆ **وأسلحة** المماليك ودروعهم مازالت نماذجها باقية حتى اليوم ، ولما كان الدرع الأوروبى المصنوع من المعدن المصبوب بالغ الثقل ، وباعثا على الضيق والارتباك فى هذه البـــلاد الحارة ، فضلا عن أن الخيول العربية الرقيقة لا تقوى على حمله أو تحمله ، فقد صيغت دروع المماليك من الزرد ذى الحلقات المعدنية المتداخلة ، بحيث تغطى المنكبين والساعدين وأعـــلى الصدر ، وكانت خوذاتهم المخروطية متينة الصـــنع جميـــلة الوضع بديعة المنظر ، مذهبة فى الغالب أو مرصعة بالزمرد والياقوت وسبائك الذهب والفضة ، وعلى جوانبها تتعلق ستائر من الزرد لحماية الوجه والعنق والكتفين •

والفارس المصرى شجاع ورجل صراع ملؤه الحياة والقـــوة والفتوة ، خيال بطبعه ، صوال على صهوة جواده ، باسل فى صدامه ، بارع فى تسديد الطعان الى غريمه ، وكانت أسلحته من أمتن أنواع السلاح وأجودها بضاعة وصناعة ، فـــكانت تفوق بكثير أســـلحة المحاربين الأوربيين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر •• فلا غرو أن كان جنود القاهرة ودمشق هم أبرع محاربين فى العالم •• وقد كانت براعتهم هذه تتجلى على الأخص فى استعمال القوس ذى السهم والوتر ، الذى أظهر سلاطينهم على وجه الخصوص مهارة تفوق الوصف فى خمـــله

واطلاق السهام منه . وكان الأتراك يتدربون على استعماله منذ طفولتهم ، ولكن قوسهم كان أضأل بكثير من ذاك القوس المصرى الرهيب الذى قهر الرماة الانكليز ، وأذاقهم من سنانه الموت المروع !

حفيد صلاح الدين يتولى حكم مصر

◇ وقد ارتقى نجم الدين صالح ـ حفيد صلاح الدين ـ عرش السلطنة خلفا لأخيه الملك « العادل » ، الذى خلع بسبب تبذيره وكثرة مفاسده ، والذى كان الى جانب خلاعته وتبذله ، صلفا متعجرفا مستبدا ، فطرد كل من تجرأ على لومه من الوزراء وقضى عليهم نفيا وتشريدا ، واختار بدلا منهم وزراء آخرين كانوا أكثر موافقة له على مجاراته فى عبثه ومجونه ! .. ومازال على حاله تلك حتى استنفد أموال الدولة وضيع خزانتها بين مسراته وأسباب لهوه وبين نفقات الجيش الذى غمره بكل ألوان البذل والتدليل ، لاعتقاده أن ليس ثمة شىء يخيفه أو يقلق طمأنينته مادام مكتسبا محبة جيشه . ولكن خاب فأله ، فقد انقلب الأمر فى النهاية عليه ، وتألبت جميع قوى الدولة ضده ، من فرط ما أرهق الناس بمظالمه وتصرفاته الباغية ، فخلع وسجن ونودى بأخيه « نجم الدين صالح » سلطانا على مصر وسوريا ، فى ٣ مايو سنة ١٢٤٠

وقد بادر « نجم الدين » بمجرد توليه الحكم الى جرد الخزانة فلم يجد فيها الا قطعة ذهب واحدة مفردة ، وحوالى ألف درهم من الفضة ، وحينئذ جمع كبراء الدولة وأعيانها وبالأخص أولئك الذين ساهموا فى الادارة المالية ابان حكم أخيه ، وسألهم عن سبب عزلهم للملك العادل ، فقالوا : « انه كان رجلا معتوها » . فلما سمع منهم ذلك جمع العلماء واستفتاهم قائلا : «هل يصح لرجل معتوه أن يتصرف فى أموال الدولة؟ » ، فلما أجابوه أن ذلك يخالف حكم الشريعة ، أصدر أمره الى

جميع من منحهم اخوه مبالغ من المال أن يردوها الى الخزينة ، أو تطاح رؤوسهم من على أجسادهم ، جزاء قلة اخلاصهم ! ٠٠ فكانت النتيجة أنه استرد بهذه الطريقة حوالى ٧٥٨ر٠٠٠ قطعة من الذهب و ٢ر٣٠٠ر٠٠٠ درهم من الفضة ، مما يساوى تقريبا ٥٣٠ر٠٠٠ جنيه !

وكان نجم الدين رجلا شهما وشجاعا ، غير ميال الى مجالس اللهو أو أسباب المسرات ، رزينا وقورا منهمكا طيلة وقته فى شئون الدولة ٠٠ فكان يحتم على وزرائه أن يحيطوه بكل شىء مهما كان تافها ، بحيث لم يكن واحد منهم يجرؤ على التصرف فى صغيرة أو كبيرة دون تلقى أوامره ! ٠٠ بل ان أقل الأمور شأنا كان يتحتم عليهم أن يبسطوها فى مذكرات مكتوبة ترفع اليه ويجيب عنها حسب ما يتراءى له ـ بخط يده فى أغلب الأحوال ـ ولكن هذه الصفات الحميدة التى اتصف بها كانت تشوبها قسوته وغطرسته التى لا تحتمل ٠ وكان متحفظا وصموتا ، يعتقد أن مما يغض من جلال السلطان وينال من هيبته أن يتنازل فيخاطب رعيته ! ٠٠ وكان وزراؤه ورجال حاشيته وخدمه يرتجفون فرقا فى حضرته ، لعبوسه وشدة تقطيبه ، وقسوة جزائه لمن يخطىء أو تحوم حوله شبهة الخطأ مهما كان بسيطا !

الجارية التركية التى جلست على عرش مصر !

◆ وكانت ممتلكات الأسرة الأيوبية تشتمل على مصر وسوريا والعراق ، ولكن ولاة هذين البلدين الأخيرين كانوا فى ثورة وتمرد مستمر ، حتى لقد اضطر « نجم الدين » فى مبدأ عهده أن يتوجه على رأس حملة لاخضاع والى العراق ٠

وفى أثناء غيبته ترك فى مصر ، كى تنوب عنه فى تسيير شئون الدولة ، امرأة قدر لها أن تلعب دورا كبيرا فى التاريخ

المصرى ، هى زوجته ، ومحبوبته ، السلطانة شجرة الدر ، وهى جارية تركية اشتراها وأغرم بها غراما عنيفا ملك عليه كل جوارحه ، فرفعها الى عرش السلطنة !

وقد كانت هذه النيابة تكاد تبدو مستحيلة فى الظروف العادية ، ولكن تلك الجارية ولدت بطبعها لتكون ملكة ، فقد توفرت فيها كل الصفات التى تؤهلها بحق لتقلد الحكم : كانت شجاعة ، قادرة ، حكيمة ، ملؤها الفطنة والذكاء ، وعلى سيمائها هيبة ووقار .. فضلا عما قيل من أنها كانت ـ الى هذا كله ـ ذات جمال رائع !

وكان رجال المماليك البحريين يضمرون الحب والاخلاص لنجم الدين ـ اذ كان كل مايملكونه مآثر من فيض جوده وفضله ـ وكذلك كانوا يضمرون الاخلاص عينه لأفراد اسرته ، وعلى الأخص زوجته ، التى كان يوجد بينهم وبينها ميثاق يبدو غريبا على الأفكار الحديثة ، ومؤداه أن كل الذين كانوا عبيدا أرقاء ، انما يجمع بينهم نوع من الاخاء يلزمهم بتبادل الصداقة والاخلاص والعون . فالسلطانة ولو أنها بلغت أسمى مرتبة فى البلاد ، الا أنهم ظلوا يعتبرونها « كوشتاشا » أى صديقة ، وهم بذلك ملزمون بأن يقدموا لها كل معونة وحماية فى استطاعتهم ، وهذا بالطبع واجب من جانبها ـ كذلك ـ نحوهم .

هل دس الخدم السم للسلطان ؟

◆ **وبعد** انتصارات متعددة أحرزها السلطان «نجم الدين» على والى العراق المتمرد وحلفائه فرنجة فلسطين ، تمكن من الدخول الى دمشق ، وهنالك وصلته الأنباء الأولى عن الحرب الصليبية التى أعلنت فى ليون سنة ١٢٤٨ وعن الحملة الفرنسية المتأهبة للابحار الى مصر ! .. ويقول « المقريزى » ان أنباء هذه الاستعدادات الكبيرة التى قام بها ملك فرنسا

لغزو وادى النيل ، قد أبلغت الى السلطان بواسطة « فردريك الثانى » امبراطور ألمانيا وملك صقلية . وكان رسوله اليه متنكرا فى زى تاجر ، فلما وصل الى دمشق وجد السلطان على فراشه مريضا بالتهاب رئوى ، وكذلك بقرحة فظيعة فى ساقه . وقد قيل فى تعليل هذه القرحة ان سلطان حماه قد استمال بالرشوة أحد خدم نجم الدين ، محرضا اياه على أن ينثر السم على البساط الذى ينام عليه مولاه فى ساعة القيلولة ، فلما نام السلطان كعادته على ذلك البساط الذى سممه الخادم الخائن ، سرى السم فى فخذه ، وانتشر بسرعة هائلة الى سائر جسمه ، فظل يومين من تأثيره بلا أكل ولا شرب . ولكن الظاهر أن هذا التعليل لا نصيب له من الحقيقة .

ورغم شدة ماكان السلطان يكابد من الألم فى مرضه ، فقد قرر العودة الى مصر فى الحال . لكى يعد مملكته للدفاع عن كيانها ضد الخطر المحدق بها ، ومع أنه لم يكن فى طاقته أن يعتلى صهوة الجواد ، فانه انطلق بأقصى سرعة يمكن أن يتحملها صدره المحموم ، وساقه المسمومة ، فوصل (أشمون) — بالقرب من المنصورة — فى أبريل سنة ١٢٤٩ .

وكان قد سبق ذلك التاريخ باحدى وثلاثين سنة ، أن نزل جيش صليبى الى دمياط ، وبعد حصار طويل شاق دخلها على أثر هجوم عنيف ، وسط مجزرة لارحمة فيها ولا شفقة ، وانقض الصليبيون على المدينة الباسلة يذبحون كل من يصادفونه حيا بين أرجائها ! .. ومع ذلك فان الدفاع المجيد الذى قابلت به دمياط أولئك المغيرين عليها قد أرهقهم وكبدهم خسائر فادحة ، حتى اضطرهم آخر الأمر الى العودة الى بلادهم مهزومين . ولذا فقد كان نجم الدين محقا فى اعتقاده أن هذه المدينة سوف تكون أول نقطة يبدأ منها الهجوم فى هذه المرة أيضا .. ومن ثم شرع فى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة ، ووضع فى مخازنها كميات كبيرة من المؤونة والسلاح ، وحشد

فيها حامية قوية يثق فى بسالتها واخلاصها • وأرسل جيشا تحت قيادة « فخر الدين » أمير المماليك البحريين ، الى الجانب المطل على النيل من دمياط ، ليمنع نزول الجنود الفرنسيين على الشاطىء ، فى حين اتخذ السلطان لنفسه ولقواته موقعا حصينا أمام المدينة ، ومن هنالك تأهب لقتال الفاتحين •

« قبرص » كانت دائما قاعدة لغزو مصر !

◆ أبحر الأسطول الفرنسى من مرسيليا فى خريف سنة ١٢٤٨ ولكن على دفعات متعددة ، لأنه كان من المستحيل أن يخرج من الميناء دفعة واحدة ، نظرا لضخامته الهائلة ـ اذ كان يزيد على ١٨٠٠ سفينة ، ولو أن أكثرها صغير الحجم •

وفى الطريق صدرت الأوامر بالجنوح الى جزيرة قبرص التى كانت تحت حكم الأسرة « اللويزينية » الصديقة • وسواء أكانت الوقفة الطويلة التى أخلد اليها الأسطول فى الجزيرة قد تمت بناء على تدبير سابق ، أو بناء على قرار مرتجل اتخذ أثناء الطريق ، فان احدا لا يعلم السبب الحقيقى فى اتخاذ الحملة هذه الوجهة ! •• ومهما يكن الأمر فقد كانت تلك الخطة خاطئة ومشئومة بالنسبة للصليبيين •

وكان من الذين استهجنوا هذا التصرف ، واعتبروه بعيدا كل البعد عن النظر السليم ، المؤرخ « ساندتو » ، أحد كتاب البندقية فى ذلك العصر ، وقد وضع مؤلفا باللاتينية عن الحروب الصليبية •فلو أن الصليبيين أبحروا رأسا الى مصر ، ولم يتورطوا فى هذه العطلة التى لا يبدو لها أى مبرر ، لوصلوا الى هناك فى الخريف ، ولوجدوا ثمة جوا ملائما لهم من الوجهة الصحية والحربية ، وأدركوا محصول البلاد محصودا ومحشودا فى الأجران رهن تصرفهم ! •• والأهم من هذا وذاك أنهم كانوا فاجأوا المصريين قبل أن يجدوا وقتا للتسلح وأخذ الأهبة لملاقاتهم ، وحينئذ كان من الممكن نجاح حملتهم •

ولا شك أن الصليبيين كانوا مقدرين ماسوف يصادفونه من الصعوبات ، ومتوقعين الدفاع العنيف الذى لاقاهم به العدو الذى لا يقل شجاعة عنهم ، والذى كان أمهر منهم فى فنون القتال ، ولديه من معدات الحرب أكثر بكثير مما لديهم ! •• ورغم أن مالدينا من المعلومات عما حدث فى قبرص ، قليل جدا - ان لم يكن معدوما بالمرة ! - فاننا نستطيع ، من الملاحظات المتفرقة التى وردت فى مذكرات « جوانفيل » ، أن نتكهن بأن الملك الفرنسى كان شديد القلق والرغبة فى التقدم السريع الى مصر ، لولا أن أجبره على التخلف تأخر جزء كبير من أسطوله عن اللحاق به • والظاهر أيضا أنه نشب نزاع كثير بين القواد ، فلم يكن الملك صاحب السلطة المطلقة ، ومن ثم لم يكن قادرا أن يفرض ارادته على الأسطول ، ويلزم القواد باتباع أوامره • ويبدو كذلك أن صعوبات مالية قد نشأت ،

البابا « اوربان الثانى » يمنح بركته لجنود حملة لويس التاسع ، قبل ابحارهم لغزو مصر

فبالرغم من ان السفن كانت تنوء بالمؤن والمهمات المجموعة والمكدسة من قبل ، فان الوقفة الطويلة فى قبرص قداستنفدت معظمها ، فاضطر الجيش الى انتظـــار ورود مؤن جديدة .
وكان أهل البندقية يقدمون للحملة بعض هذه المؤن ، نظير مقابل بالطبع ، فان البنادقة كانوا قوما نفعيين ، ولم ينضموا الى الصليبيين الا حين وجدوا أن فى هذه الحرب ترويجا لمصالحهم، فكان شعارهم : « نحن بنادقة أولا ، ومسيحيون بعد ذلك ! » .

أما « فردريك الثانى » ، الامبراطور المحروم من الكنيسة فقد كان أكثر كرما وسخاء ، اذ بعث الى الحملة بكميات وافرة من المؤونة ، كهدية لا يبتغى عنها عوضا ، ومن ثم أرســـل اليه ملك فرنسا وأشرافها كتابا مسهبا باللاتينية ، يشكرونه فيه شكرا بليغا ، وما زال هذا الكتاب موجودا حتى اليوم .

وأما قبرص نفسها فلم تستطع أن تتقدم الا بالقليل ، فقد كانت أرضا مجدبة قاحلة فى ذلك الوقت ، كما استمرت كذلك عدة قرون . وهكذا لم يكن عجيبا بعد هذا أن ذلك الجيش الذى يبلغ الثمانين ألفا من الرجال ، الممتلئين قوة وشهية للطعام ، مع مايرافقهم من آلاف الخيول .. لا عجب ألا يبقوا على شىء من تلك التلال الممتدة من أكياس الحنطة التى رآها «جوانفيل» مكدسة فى العراء ومغطاة بأكوام القش وأوراق النبات ، فقد نفد كل ذلك عن آخره ! .. والصفوف التى لا نهاية لها من براميل النبيذ ، التى قضى الملك زمنا طويلا فى جمعها وادخارها، فرغت هى أيضا جميعها . فكانت النتيجة أن الأسطول لم يستطع أن يتحرك من الجزيرة الا بعد تنظيم ادارة امداداته من جديد ، واعادة تدبير مؤونته .

ولكن مهما كانت الأسباب التى دعت الى ذلك التـــأخير الطويل الأمد فى قبرص ، فانه كان وبالا على الحملة ، وقد أدى الى أسوأ النتائج .

الفصل الثالث

ابحار الحملة من قبرص الى دمياط

◆ وفى يوم الأحد أول يونية سنة ١٢٤٩ أبحر الأسطول من ميناء (ليماسول) بقبرص ، فوصل فى اليوم الرابع من الشهر نفسه الى المصب الشرقى للنيل • ولم يكن يرافق الملك سوى ثلث الحملة تقريبا ، وأما الباقى فقد جرفته الرياح الشديدة معها فاتجه الى الشمال الشرقى ، وتوغل حتى لم يمكنه أن يدرك الملك وينضم الى قواته الا بعد وقت طويل • وقد نصح للملك مجلسه الاستشارى بأن ينتظر هذا الجانب المتخلف من الاسطول قبل النزول الى أرض مصر ، ولكنه رفض أن يفعل ذلك قائلا ان التردد ربما يشجع العدو ، وانه ليس هناك مرفأ ينتظر بقربه ـ فى مأمن ـ وحول السفن المتفرقة • ومن العجيب أنه لم يفكر فى مرفأ الاسكندرية الذى كان فى امكانهم الوصول اليه بمساعدة الرياح فى خلال ٢٤ ساعة !

وكانت قوات المسلمين مرابطة على الشاطىء ، وتتألف من رجال رائعى المنظر منتصبين للقتال كأبطال الأساطير !•• وكان قائدهم ذو الدرع الذهبى يتألق كالشمس ساعة الشروق، وأصوات أبواقهم وطبولهم تبعث الرعب والرهبة فى القلوب ، اذ كان لها وقع غريب موحش فى آذان المغيرين !

ولم يجد الفرنسيون أية مشقة فى النزول الى الماء الضحل قرب الشاطىء • وياله من منظر رائع يخلب الألباب ، منظر هذه الألوف المؤلفة من الفرسان ، بخوذاتهم الفولاذية اللامعة ، ودروعهم الثقيلة ، حاملين السيوف المستقيمة ذات الحدين ،

ابحار لويس التاسع مع قواد جيشه ، فى طريقهم الى مصر

والرماح الطويلة .. ووراءهم خيول الحرب الضخمة العارمة ، وحملة القوس البواسل ، والصفوف المتراصة التى تحجب الأفق من المشاة . كل هؤلاء كانوا يملأون رحاب الأرض على حافة البحر ، وعلى رأسهم ملكهم الذى قفز مثل جنوده فى المياه ، وخاضها وهى تغمره الى منكبيه ، والعلم الملكى مرفوع اللواء أمامه . وقد استمرت القوات فى نزولها الى الشاطىء حتى أصبح الجيش جميعه على البر . ولكنهم فى نهاية الأمر اكتشفوا أنهم نزلوا على الجانب الغربى من فرع دمياط ، فى حين أن دمياط كانت على الشاطىء الشرقى من النهر ، ومن ثم اضطروا للعودة الى سفنهم مرة أخرى ، لأنه لم يكن فى مقدورهم أن يعبروا النيل تحت رحمة الجيش المصرى الرابض فى مواجهتهم !

سقوط دمياط

• لكن « فخر الدين » أحس بعجزه عن ملاقاة الغزاة ، سواء بسبب تفوق العدو عليه فى العدد ، أو مابدا من تمرد القوات التى تحت قيادته وعصيانها أوامره .. فانسحب متقهقرا بأقصى سرعة على متن جسر من القوارب التى كانت راسية فى النيل بالقرب من دمياط ، وكر راجعا مع جنده الى المنصورة . ولكنهم فى عجلتهم المذعورة ، نسوا أن يرفعوا الجسر من على النهر ، فانقض عليه الفرنسيون واحتلوه .. وانفتح أمامهم الطريق !

ويا للرعب الذى تملك القلوب ، والفزع الذى تسلل بين الناس ، فبلبل العقول . لقد ارتبك الناس حتى فى دمياط نفسها ، اذ رأوا أولئك الغرباء ذوى الصلبان يعودون ثانية بعدما رأوا من الهول على أيديهم سنة ١٢١٨ ! .. فانطلقوا يهيمون على وجوههم فرارا من المدينة الناعسة .. رجالا ونساء وأطفالا .. حتى جنود الحامية هرولوا خلف الناس وجلين ، تاركين حصنهم المنيع بكل مافيه من المؤونة والأسلحة والدروع والذخائر وآلات القتال وكل وسائل الدفاع ، ولاذوا بأذيال الجيش الهارب نحو المنصورة .. جيش « فخر الدين »

فلما وصلت الى القاهرة أنباء سقوط دمياط ، روع الناس ، وعم التشاؤم ، وأيقن الشعب أن نجاح الفرنجة فى دخول المدينة سوف يزيد فى حماسهم ، ويضاعف من استخفافهم بالمسلمين الذين رأوا جيوشهم تولى الأدبار هاربة أمام طلائع جندهم ، وقد وقعت فى أيديهم الأكوام المكدسة من الأسلحة والكميات الهائلة من الذخيرة والرماح والأقواس ذات السهام .

ومما زاد فى تشاؤم الناس ماكان عليه الملك من مرض أعجزه عن تقلد زعامة الجيش فى هذا الظرف الرهيب ، فغمرت البلاد موجة من القنوط واليأس ، وأيقن الجميع أن المملكة هذه المرة

نزول جنود الحملة الصليبية في مدينة دمياط

ضائعة ، وأنها واقعة لامحالة بين براثن الفاتحين !

ولكن « نجم الدين » ، ذلك الملك الباسل ، نهض فأحيا فى القلوب موات الأمل ، وبقدر ماكان فى جسمه من الاعيـاء والوهن ، تجلت فى روحه قوة الشكيمة ، وعزم الرجال .. فما بلغته أنباء الهزيمة المخزية ، حتى انتفض فى فراشه كالأسد الجريح ، وقد أثار ثائرته فرار الحامية من دمياط ، فأصدرأمره باعدام خمسين من رجالها المسئولين ! .. وعبثا حاول هؤلاء الدفاع عن أنفسهم وتبرير مسلكهم بحجة تقهقر القائد « فخر الدين » ، فانه صاح فيهم أنهم يستحقون الموت ، اذ سلكوا مسلك الجبناء بفرارهم قبل تلقى أوامره . وعزز قضاءه بفتوى كبير القضاة فى مصر .. ثم ارتد فى قسوة هائلة وسخط هائل على « فخر الدين » يريد أن يفتك به ! .. ولكن هذا الأخير لاذ بالمماليك فأخذوه فى حمـايتهم ، اذ قال لهم ان السلطان موشك على الموت ، وانه لن يعيش غير أيام قلائل ، فلهم أن يفعلوا معه مايحلو لهم ، وقد قارب نجمه الأفول !

وقد كتب المؤرخ العربى « جمال الدين » فى وصف هذه الفترة يقول : « **برحت العلة بالسلطان واشتدت عليه وطأة المرض ، فأسرعت قواه فى الانهيار .. وعبثا حاول الأطبـاء تخفيف آلامه ، أو اسداء أية معونة اليه .. ولكنه مع ذلك لم يفقد شجاعته ، بل احتفظ على الدوام بقـوة روحه ، وطغت شخصيته الجبارة على الألم ووهن الداء ، فلما اندملت القرحة التى كان يعانى منها أشد الأوجاع ، ظن أنه نجا من الخطر ، فكتب الى الأمير حسام الدين يقول له : « انى بخير ، وقد ذهب عنى المرض ، وكل ما أتمناه الآن أن أعتلى صـهوة جوادى الأشهب والعب شوطا من البولو** »

ولكن بعد أيام قلائل جاءت النهـاية ، فأحس السـلطان باقترابها ، واذ ذاك أصدر منشورا الى كل رعاياه ، يدعو فيه

من له مال على الخزانة ان يأتى الى هناك ، وان وجد صادقا يعطى حقه .. فكان هذا العمل من آخر الواجبات على مسلم تقى . وفى ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩ استشهد السلطان وانتقل الى ربه .

وكان ذلك بعد ستة أشهر تقريبا من نزول الحملة الصليبية الى مصر ..

الفرنسيون يتخذون (دمياط) مسرحا للتهتك والمجون !

◆ ومرة أخرى يحيرنا رجال الحملة بتصرفاتهم ، فقد دخلوا دمياط فوجدوا حصنها خاليا لايتردد فيه نفس انسان ، ولكن مخازنه كانت مكتظة ممتلئة بكل ماتشتهيه الجيوش ، فما كان منهم الا أن تراخوا هناك تراخيهم فى قبرص .. وتوالت الشهور !

وأحس المصريون باخلاد الفرنسيين الى الجمود والراحة ، فأفرخ روعهم ، وتشجعوا على مناوشتهم ، فشنوا عليهم الغارات ، متوالية هوجاء .. وراح السلطان – حسب عادة الأتراك القديمة – يمنح قطعة ذهبية عن كل رأس من رؤوس الأعداء يأتيه بها أحد جنوده !.. وتوالت الكرات الليلية على معسكر الفرنسيين ، واغتيل الحراس واحدا اثر الآخر ، واعتقل الكشافون الفرنسيون وقتلوا ..

وحينئذ ، **اختل النظام فى معسكرات الفاتحين ، وأصبحت دمياط مسرحا للتهتك وبؤرة للمفاسد . وساد الافراط الفاضح فى الملذات وأسباب الفجور ، وكان ذلك كله يرتكب على الرغم من ارادة الملك التقى ، الذى يبدو أنه أصبح عاجزا عن السيطرة على جيوشه ، أو كبح جماحها !.. وحتى المؤونة بدأت تنفد بسبب جشع التجار المتعهدين ، وتعاقبت عواصف الرياح العنيفة على الوجه البحرى ، فحطمت مائتين وأربعين سفينة من**

السفن الراسية على الشاطىء بقرب دمياط ! ٠٠ ففدحت الخسارة فى الأرواح ، ودمرت المخازن بما فيها من ذخيرة ومؤونة ٠ وقد حدث كل هذا ، لسوء حظ الصليبيين ، قبل وصول الكونت « دى بواتييه » مع بقية الجيش !

فلما وصل الكونت دى بواتييه جمع الملك مجلسا من الأشراف بقصد تقرير الطريق الذى يسلكه الجيش : وهل هو طريق الاسكندرية أو طريق القاهرة ، فكان من رأى الكونت « بيتر أوف بريتانى » ومعه بعض البارونات ، أنه يجب الزحف أولا على الاسكندرية ، نظرا لأنه يوجد هنالك مرفأ يكون خير وكر لأسطولهم ، ولأن الجيش هناك يمكن تموينه بسهولة ٠٠ ولكن الكونت « دارتوا » لم يوافق على هذه الخطة ، واستهجنها قائلا انه لن يسير الى الاسكندرية الا اذا استولى الجيش أولا على القاهرة (أو بابيلون) التى كانت مقر الحكومة فى مصر ٠٠ ثم عزز رأيه بأن من يريد أن يقتل الأفعى ، فيجب أن يبدأ برأسها ! ٠٠ » ، فوافقه الملك على ذلك ، وطرح جانبا الخطة الأولى ، التى من المؤكد أنها كانت الأفضل والأسلم عاقبة !

موت السلطان ٠٠ وحيلة « شجرة الدر » !

◆ **طبقا** لقانون الوراثة الاسلامى ، يكون الابن الأكبر فى العائلة المالكة هو الوارث للعرش ، الا أنه بحكم الظروف الشاذة التى اعترت الأحوال كثيرا فى مصر ، لم تتبع هذه القاعدة بصفة دائمة ٠ ولكن فى ذلك الظرف الحرج الذى كانت تمر به البلاد لم يكن ثمة مجال للتردد ، فقد ترك « نجم الدين » ولدين : أحدهما كان من حبيبته « شجرة الدر » ولكنه كان لا يزال طفلا صغيرا ، فى حين أن البلاد وهى مهددة بذلك الخطر الوبيل كانت فى حاجة الى رجل محنك ، تمرس بالحكم وله

بعض الخبرة فى شئون الحرب ، وعلى ذلك فقد كان محتما أن يصرف النظر عن الطفل ٠

وأما الابن الأكبر للسلطان ، وهو الذى يدعى « طوران شاه » ، فكان فى ذلك الوقت نائبا عن أبيـــه فى العراق ، فبادر الرسل يستحثونه على الاسراع فى العودة الى مصر ، كى يجلس على عرش أبيه ٠ ويصف « جوانفيل » الأمير فى ذلك الوقت بأنه كان شابا فى الخامسة والعشرين ، مثقفـا ذكيا وممتلئا خبثا ودهاء . ويظهر أن هذه الصفة الأخيرة كانت تنطبق حقا على الأمير الشاب ، فقد كان معروفا أن السلطان مابعث بابنه الأكبر بعيدا عن القاهرة ليحكم ولاية نائية ، الا لأنه أراد عامدا أن يتخلص من غطرسته وسوء طباعه !

وفى هذا الوقت برزت السلطانة الباسلة « شجرة الدر » فى الميدان ، فأتت من ضروب السياسة والدهاء مايعجز عنه فحول الحاكمين ، اذ عزمت على ابقاء خبر وفاة السلطان سرا خفيا ، فلم يعرفه غير قلائل من عبيد القصر ،وغير الأمير « فخر الدين » والخصى جلال الدين محسن اللذين كانا موضع ثقتها ٠٠ فوضعوا جثمان السلطان فى سفينة صغيرة ، ونقلوه عبر النيل الى الحصن القائم فى جزيرة الروضة حيث كانت ثكنات المماليك ، ثم عادوا من حيث أتوا ، واستمر كل شىء فى سيرته العادية ، وكأن لم يحدث شىء : فحـــاكم القاهرة كان يتلقى الأوامر كالمعتاد من المعسكر ، وكان الذى يملى هذه الأوامر هو شجرة الدر ، وأما التوقيع فباسم السلطان المتوفى ، اذ كان هذا التوقيع ضروريا لجعل تلك الأوامر قانونيـــة وصحيحة ، وكان يقوم بتزوير التوقيع خطـاط ماهر يدعى « سهيل » ٠

وهكذا استمرت كل الأعمال الرسمية تجرى باسم نجم الدين كما لو كان مايزال حيـــا ، حتى أن مائدته ظلت يمد سماطها كل يوم كالعادة ، وكانوا يحتجون عن تغيبـه بأنه

السلطانة شجرة الدر ·· بفضل حكمتها سحقت مصر جيش لويس التاسع !

مريض جدا ولا يمكنه مقابلة أحد ! ·· وقد يكون البعض ارتاب فى الحقيقة ، ولكن أحدا لم يجرؤ على ابداء أية ملاحظة أو التفوه بكلمة ·

وأسرع الرسل واحدا أثر الآخر الى طوران شاه ، يتعجلون حضوره · وفى الوقت نفسه ، كانت السلطانة ممسكة بزمام الحكم فى البلاد ، وقد أنست فى نفسها كل الكفاءة للقيام بأعباء هذا العمل ·

٠٠ وظل الوضع على هذا النحو عدة أسابيع ٠٠ ثم بدأت الشائعات تتسرب عن وفاة الملك !

معركة المنصورة

◆ غادرت جيوش الصليبيين دمياط فى أواخر ديسمبر ، وبدأت زحفها على الضفة الشرقية من فرع دمياط ، وظلت تواصل السير مسرعة تارة ، متوقفة أخرى ، حتى اعترضت طريقها ترعة أشمون ، وهى تمتد غير بعيد عن شمال المنصورة ٠ وعلى الضفة الأخرى منها كانت ترابط القوات المصرية ، فكانت تلك أول عقبة جدية صادفت الحملة منذ قيامها ، ومن ثم ألقت هنالك رحالها ، وأقامت غير مختارة معسكرها ٠

أما ذلك الحاجز الطبيعى الذى قام فى وجوه المغيرين ، فهو ترعة يسمونها بالبحر الصغير ، ويدعوها « جوانفيل » بقناة روكسي ، والظاهر أنه أخذ هذه التسمية عن اسم مدينة مازالت قائمة هناك ، تدعى (الدراكسة) ٠ وقد تغير مجرى البحر الصغير منذ ذلك الحين تغيرا كبيرا ، فهو الآن يتفرع عن النيل فى نقطة قريبة جدا من المنصورة ، بينما كان موضع التقائه حين ذاك يبعد عن تلك المدينة الى جهة الشمال نحو أربعة أو خمسة أميال ، وعلى الرقعة الواقعة فى هذه المسافة ، كانت ترابط القوات المصرية ، التى وقفت متأهبة للقاء الفاتحين ٠٠ وهنالك وقعت بينهما معركتان كبيرتان ٠

وأما مدينة المنصورة ، فهى لازالت فى موقعها الذى وجدها فيه الفرنسيون ، وان اتسعت بعد ذلك أرجاؤها ، وامتدت أطرافها امتدادا كبيرا ، خصوصا ناحية الشرق ٠٠ وقد حكى لى مستر « أ٠ ديل » ، أحد المستوطنين فى هذه المدينة منذ زمن بعيد ، أنه كان ممتطيا صهوة جواده منذ خمس وعشرين

سنة ، على بعد قليل من الشمال الشرقى للمدينة ، حيث توجد الآن بلدة (الجديدية) ، فوقع نظره على أكوام هائلة من العظام البشرية وحطام الجماجم ، متناثرة على حيز من الأرض ، فلما سأل الوطنيين عن هذا المكان أجابوه بأن « هناك وقعت معركة كبيرة مع النصارى فى قديم الزمان » .. فأخذ بعض هذه الجماجم وعرضها على الدكتور بيترسون ـ طبيب السفارة الانجليزية بالقسطنطينية ـ فكان من رأيه بعد فحصها أنها جماجم موتى « أوروبيين » ولا يمكن أن تمت للأهالى ، فضلا عن أن هيئة المكان تبدو كمقبرة كبيرة ، فى حين أنه بعيد عن أية منطقة آهلة بالسكان .. أى ان كل الدلائل تشير الى أن هذه العظام الملقاة على أرض مصر هى البقية الباقية من جنود الصليبيين الذين قتلوا فى المعارك الهائلة التى نشبت أمام المنصورة حينذاك .

تفوق المصريين فى هندسة الحرب وفنونها

◆ **وكان** أول ما اهتم له الفاتحون هو تأمين أنفسهم فى مركزهم الجديد وتحصين معسكرهم بالأسوار والخنادق والمتاريس ، فلما تم لهم ذلك نصبوا مدافع المنجنيق ، وقاذفات الأحجار ، وراحوا يلقون الصخور على رؤوس العدو عبر القناة ، لعلهم يزحزحونهم عن مواقعهم ! .. **ولكن المصريين أجابوا ضربة بضربة ، وحجرا بحجر ، وحمى وطيس التراشق بينهما ليل نهار ، حتى فدحت الخسارة من الجانبين فى الأرواح ، غير أن الصليبيين وجدوا آخر الأمر أن العدو يضاعيهم ، بل يفوقهم فى هذا النوع من فن الحروب ، فعزموا على ملاقاته وجها لوجه ، والاشتباك معه فى معركة يجيد الفرنسيون فيها ضروب القتال** . ومن ثم ابتدأوا فى تشييد قنطرة يعبرون عليها القناة ، وكانت هذه مهمة عسيرة وخطيرة ، تحت هذا الوابل من القذائف

الذى يمطرهم به المصريون ، الذين كان لديهم ست عشرة آلة من هذه الآلات الجهنمية ، التى تقذف القنابل والأحجار . والموت الزؤام ! » .. فلم يسع الملك لكى يحمى جنده الذين يعملون فى تشييد القنطرة الا أن أمر بصنع ثمانى عشرة من هذه الآلات ووضعها على الضفة المقابلة للعدو ، كما أمر باقامة حاجز مرتفع ، فى أعلاه برجان من الخشب ، يقف عليهما رماة النبال وحملة الأقواس . فلما انتهوا من تشييد هذا الحاجز ، بدأوا من جديد فى بناء القنطرة ، وقد ازدادوا حماسا ونشاطا. ولكن سرعان ماوجدوا أن المصريين أكثر منهم براعة فى فن الهندسة ، « فبمجرد أن تم تشييد القنطرة ، اذا بهم يرونها تتداعى وتنهار ، فان المصريين حين رأوا هذه القنطرة تمد على القناة ، بادروا بحفر خنادق عميقة ، ملاصقة لطرفها الذى فى ناحيتهم ، ومن ثم كانت مياه النيل تأتى متدفقة فلا تجد منفذا لها غير هذه الحفائر ، فتندفع فيها وتملأها ، وكانت النتيجة أن المياه أناخت الضفة التى ترتكز اليها القنطرة

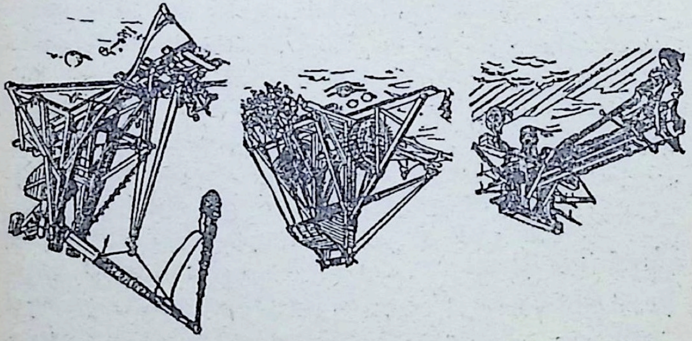

مدفع المنجنيق ، وقاذفة الأحجار ، وقاذفة السهام .. من أسلحة الحروب الصليبية

وانخفضت بها ، وحطمتها ! ‥ وهكذا ، فى يوم أو اثنين ، انهار مجهود عدة أسابيع »

النار الاغريقية !

◆ ثم ظهر فى ميدان القتال بعد ذلك سلاح أشد وأفتك من كل آلات الحرب حينذاك : فقد فوجىء الفرنسيون بشعلات رهيبة من اللهب تنصب على رؤوسهم كأنها نزلت من السماء ! ‥ تلك هى « النار الاغريقية » ، وكانت مزيجا من الرعب والموت ، وسرا رهيبا طالما أنقذ الأمبراطورية البيزنطية من الدمار ، وظل مغلقا كالطلسم أمام الشعوب الأخرى أربعة قرون ‥ حتى وقع المسلمون ـ قبيل هذه الحملة السادسة ـ على مكنونه فعرفوه . وهو مركب عجيب اخترعه «كاليكادنوس»، أحد مهندسى مدينة (هيراجوناليس) السورية ، فى عهد الامبراطور قسطنطين يوجوناتوس ، الذى حوصرت القسطنطينية فى ابان حكمه ست سنوات على يد الغزاة المسلمين ، فلم ينقذها منهم غير هذا السلاح المروع من أسلحة الحرب . وكذلك حدث فى عهد « ليو أيزدريان » أن قام المسلمون بأعظم هجوم لهم ، وكانوا حينذاك ـ ولمدة قرنين بعد ذلك ـ فى قمة قوتهم وعنفوانهم ، ولم يجلوا عن القسطنطينية الا بعد حصار دام ثلاث سنوات ، فكان أهم ما حررها من ربقتهم هذه « النار الاغريقية » !

وقد وصفت الأميرة « أنا كوميننا » ـ ابنة « الكسوس كومينوس » ، الذى شهد عصره الحرب الصليبية الأولى ـ هذه النار الاغريقية فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها ، فصورت مقدار روعتها حين تعلو فى الجو ، وحين تشتعل ، ثم حين تنقض كقطعة من الجحيم فتشوى الناس شيا وتتركهم مع متاعهم رمادا تذروه الرياح ! ‥ وقد أشارت الى تركيبها

فقالت انها مزيج من النفط والزيت والكبريت ، مجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال ! ٠٠ وكان هذا المزيج النارى يعبأ فى أنابيب من النحاس لها فم توقد منه ، وفى مؤخرها قوس يدفعها حين توتره الى الأمام ٠ وكانت تلك الأنابيب توضع بكميات كبيرة فى اسطوانة هائلة مستديرة ، وتلقى فى مدافع المنجنيق ، ثم تقذف على العدو ، فتصليه نارا حاميـــة ، اذ تنفجر بقوة الاصطدام فيندلع منها لهيب لا يمكن لمخلوق أن يخمده ، وتنتشر شراراته فى كل جانب فتجعل ماحواليها أتونا متلظيا !

ذلك هو السلاح الذى حطم به المصريون كل ماأعده الجيش الفاتح للهجوم ٠ ويصفه « جوانفيل » متعجبـــا فيقول : « فى غسق الليل جاء المسلمون بآلة عجيبة ووضعوها تجاه الأبراج التى كنا ساهرين على حراستها ، أنا والسير « والتركوريل » ، ثم قذفونا منها بشىء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب : نار كأنما هى الدنان المشتعلة ، وذيولها من خلفها كحراب طويلة ، ولها صوت يهزم كالرعد القاصف ، وهى منقضة فى الفضاء كتنين هائل من اللهب يطير فى الجو ، متوهجا بنور كنور كوكب عظيم ٠٠ ثلاث مرات فى تلك الليلة المرعبة القوا علينا هذه الشياطين النارية ٠٠ النار الاغريقية ! »

ثم يصف « جوانفيل » بعد ذلك كيف أن المسلمين « وضعوا فى النهار التالى كذلك قاذفة النار تجاهنا ، لـكى يحطموا أبراجنا وأسوارنا ، وكأنما فتحوا باب جهنم فجأة فى وجوهنا ، فاندلعت النار فى برجينا الخشبيين ، وامتدت ألسنتها تلتهم كل ماتصل اليه ! » ٠٠ وياللغيظ والحنق المكتوم الذى يتبدى وراء هذه السطور التى كتبها جوانفيل فى وصف هذا السلاح الذى جرده المسلمون فى وجوههم ، حتى لقد دفع به حقـده ـ وهو ذلك الرجل الوقور ـ الى ترديد النعوت المضحكة ، والعبارات التى تدعو الى الابتسام والرثاء ، فطالما قال « هؤلاء

الأتراك الخونة ٠٠ هؤلاء الغادرون ٠٠ » وكأنما اقترفوا ـ اذ يحاربونه بهذا السلاح ـ جريمة لا تغتفر ! ٠٠ وصمم الملك على بناء مجموعة أخرى من الطوابى بدل آلتى احترقت ، ولكنه لم يجد خشبا فى البلاد المجاورة فاضطر الى جلبه من السفن الراسية فى دمياط ٠٠ ومن ثم شيد عددا آخر من البروج ، تحت وابل من قذائف الأحجار ، ثم ٠٠ سلط المسلمون نارهم الجهنمية ، واندلعت ألســـنة اللهيب فى الطوابى ٠٠ وللمرة الثانية احترقت !

وحينئذ لم يبق للصليبيين حيلة ، فيئسوا ، وابتأسوا ،

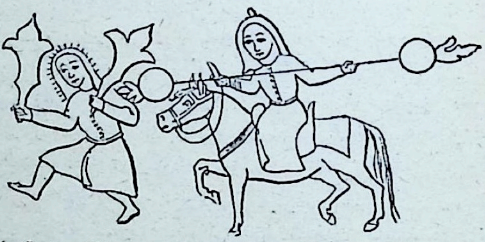

النار الاغريقية : السلاح الرهيب الذى استعمله المصريون واوقعوا به الذعر فى قلوب الصليبيين

وفتر نشاطهم ، فقد ذهبت عبثا كل محاولاتهم فى عبور القناة والاشتباك مع العدو ، وأخفقوا فى ذلك أيما اخفاق ، فاستدعى الملك أركان حربه وراحوا يتشاورون فيما عساهم أن يفعلوا لمواجهة الموقف !

ولا شك أن ادارة المخابرات فى الجيش الفرنسى كانت من القصور والغفلة بدرجة تدعو الى الرثاء ٠ فالظاهر أنهم لم يكونوا يعرفون شيئا بالمرة عن المنطقة التى كانوا يحاربون فيها ، كما أن العدو كان يفوقهم عدة وعددا ، حتى ان كل فرقة فرنسية يحتمل انها كانت تخرج للكشف كانوا ولابد يقضون

عليها فلا تعود ! ٠٠ أو لعلهم لم يفكروا مطلقا في ارسال الكشافين ليتعرفوا معالم البلاد ، ويكونوا على بينة عند قتالهم فيها ، فالحق أن معلوماتهم عن الحرب ـ باعتبارها علما وفنا ـ كانت قليلة جدا !

فلما اجتمع الملك بقواده ، صرح السيد « هامبير دى بوجو » بأن بدويا عرض عليه ـ فى مقابل خمسمائة جنيه بيزنطى ـ أن يريهم مخاضة مأمونة فى البحر الصغير يكون ماؤها ضحلا غير عميق ، وعبورها سهلا لقوات المحاربين ، ولكن هذا البدوى أصر على أن يدفع اليه المال مقدما ، فقبلوا على الفور هذا العرض ٠

مصرع فخر الدين ، وتولى « بيبرس » القيادة

◆ وفى يوم الثلاثاء ٥ فبراير سنة ١٢٥٠ ، عبر الملك مع أشقائه الثلاثة وقوة كبيرة من الفرسان هذه المخاضة ، وفاجأوا المسلمين فى معسكرهم ، وكان القائد « فخر الدين » وقتئذ فى الحمام ، فخرج فى الحال ، واعتلى جواده ـ دون أن ينتظر حتى كى يلبس درعه ـ ثم انطلق يلم شعث المسلمين الذين ولوا الأدبار أمام هذا الهجوم المفاجىء ٠ والتحم بالعدو ،مقتحما صفوفه فى شجاعة عظيمة ، ولكنه سقط مثخنا بالجراح ومات تحت سنابك الخيل !

فلما وصلت الأنباء الى المنصورة بموت « فخر الدين » ، اجتمع بعض المماليك وضباطهم ، واقتحموا بيته وراحوا يعيثون فيه نهبا وسلبا ، وقد كسروا خزائنه وسرقوا مالقوه فيها من المال ، وخطفوا ما وصل الى أيديهم من الأثاث والرياش والطنافس والأسلحة والخيول ، وكل شىء ذى قيمة ٠٠ فلما أصبح البيت قاعا صفصفا أشعلوا فيه النار ، وتركوه يحترق !

فى تلك الأثناء كان الصليبيون قد اقتحموا أحد أبواب المنصورة ، وانطلقوا وراء المسلمين الذين فروا مذعورين هائمين

فى أنحاء المدينة وحواليها ، فدخلها الغزاة دخول الفائزين المنتصرين .. غير أنه فى لحظة خاطفة طار ذاك النصرمن أيديهم ، اذ باغتهم جيش المماليك البحريين - وقد كان فى انتظارهم خارج المدينة - فردهم على أعقابهم وطارد فلولهم فى كل مكان ، ثم تعقبهم فى الأزقة والشوارع .فلما لاذوا بالبيوت يريدون الاحتماء بها ، انهال عليهم سكانها بالضرب وتساقطت عليهم القذائف من الأسطح والنوافذ .. ولولا وصول قوات المشاة الفرنسية لهلكوا عن آخرهم !

وقد قتل فى هذه المعركة ألف وأربعمائة فارس ، وكثير من نبلاء فرنسا ، بعد أن أظهر الفريقان فى القتال بسالة فائقة ، فكان الذى تولى قيادة المسلمين فى ذلك الهجوم البارع المروع هو « بيبرس » قائد المماليك البحريين ، الذى طبقت شهرته بعد ذلك الآفاق ، والذى غدا بعد عشر سنوات سلطانا على مصر ، حكمها لمدة سبعة عشر عاما حكما مجيدا ، وكان عصره عصرا ذهبيا .

وأما الصليبيون فقد أظهر ملكهم وأشقاؤه بسالة عظيمة وتضحية هائلة ، اذ كافحوا مع جنودهم جنبا الى جنب ، وعرضوا حياتهم لأشد الأخطار ، حتى أن « جوانفيل » يؤكد أنه لولا شجاعة الملك حينذاك لهلك الجيش جميعه ! .. وهو يصف القتال فى هذه المعركة فيقول : « **أظهر العدوان فى المعركة مهارة فائقة وصلابة وحسن تدرب ، وقام ابطالهم بأعظم الأعمال وأروعها اقداما وجرأة .. ذلك أن العراك فيها لم يكن بقوس ولا برمح ، ولا بقذيفة مدفع ، وانما كان صورة مروعة لملحمة هائلة ، اشتبكت فيها الأجساد البشرية وهى تتبادل الطعنات بالسواطير والقضبان والسيوف والرماح مختلطة بعضها البعض ، فليس ثمة الا ضربات ذات اليمين وذات الشمال ، وهنا وهناك ، وعلى الرؤوس وفى الصدور وخلف الظهور ! .. وصيحات تزأر ، وانات تزفر ، وكأس المنايا على**

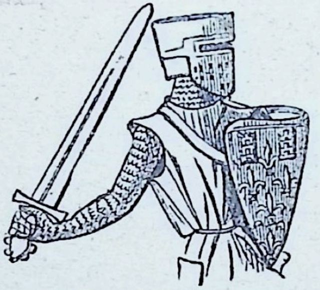

هكذا كان يبدو الكونت دارتوا ، شقيق
لويس التاسع اثناء المعركة

شفاه الصرعى تدور ٠٠ وبينذاك طارت ضربة طائشة فصادفت صدر الكونت « دارتوا » فخر لتوه صريعا بلباسه الفاخر الملكى ـ وقد كان عليه ثوب أمير ـ فأخذ قائد الأعداء درعه ورداءه ورفعهما أمام المسلمين ٠٠ ولكى يؤجج نار الحماس فى صدورهم قال لهم : هذا هو درع الملك ورداؤه ، فان الملك عدوكم قد مات ! »

وحينما فاجأ الفرنسيون المعسكر المصرى ، انطلقت حمامة من حمام الزاجل ، تحمل الى القاهرة أخبار الهزيمة ٠ فلما وصلتها ، فزع الناس أعنف الفزع ، واشتد وقع الصدمة المفاجئة عليهم ٠ الا أنه بعد ساعات قليلة ، ظهرت فى الجو حمامة أخرى تزف الى هؤلاء المفجوعين ، المروعين ، أنباء النصر ، فأعادت اليهم الاطمئنان والسكينة ، وعاودتهم الثقة والأمل

جيش مصر يشن هجوما ساحقا !

◆ **وفى** يوم الأربعاء التالى لهذه المعركة ، أمر « فارس الدين أقطاى » ـ وهو القائد الجديد الذى اختير خلفا لفخر

الدين ـ بانعقاد مجلس الحرب ، وقرر القيام في الحال بهجوم كبير لتحطيم الجيش الصليبى . ولكن الصليبيين عرفوا أمر هذا الهجوم من أحد جواسيسهم ... اذ أنه كان ثمة مأجورون كثيرون من المسلمين يأتون بأخبار قومهم الى الفرنسيين ، فبادر الملك باعداد جيشه لهذا الهجوم ، ونسقه فى سبع فرق كبيرة انتظمت على طول الضفة فى مواجهة المعسكر المصرى .. غير أن موقف الصليبيين هناك كان غاية فى الدقة والخطورة ، فقد كانت تحوطهم من خلفهم وعلى جانبيهم أنهار وترع عميقة سريعة الجريان ، وكان أمامهم العدو ، فلم يكن لهم من سبيل الى الاتصال بمعسكرهم فى الضفة الشمالية للبحر الصغير الا قنطرة واحدة خشبية . ورغم أن الجناح الأيسر لجيشهم كانت تحميه ـ بعض الشىء ـ فرقة حملة الأقواس ، بقيادة السير « هنرى دراكون » ، المرابطة على الضفة الشمالية ، الا أن الجناح الأيمن من الجيش كان مكشوفا أمام القوات المصرية التى باتت تهدده بقوتها العظيمة ، وتفوقه فى القوة والعدد !

ويصف « جوانفيل » خطة الهجوم التى وضعها « أقطاى » ، والتى تدل على مهارته الفائقة فى تدبير الخدع الحربية ، فيقول :

« فى صبيحة الأربعاء ، وقد أرسلت الشمس أول خيوطها ، رأينا الأرض كأنما تتحرك أمام ناظرينا ، وقد أقبل أربعة آلاف فارس ، يحملون في منظر رائع سلاحهم ، ويتهادون على ظهور خيولهم ، ووقفوا تجاهنا فى أبدع نظام . ثم بعد قليل أقبل من خلفهم جيش جرار من المشاة ، حجب من كثرته أمامنا وجه الأفق ، فأحاطوا بجيشنا كله . وبعد فترة قصيرة أخرى ظهرت من خلف هؤلاء جيوش أخرى لايحد البصر مداها ، فاصطفت فى المؤخرة على نسق عجيب . ووقف القائد المصرى على رأس جيوشه ينظمها ويرتب صفوفها وأماكنها .. فلما انتهى من ذلك ، تقدم وحده على ظهر جواده ، وسرح البصر فى جيوشنا ، فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جندنا

أوفر ، وبانقاصها فى الأماكن التى يرانا فيها أقل قوة ، وظل هذا القائد منهمكا فى تلك العمليات حتى الظهر . ثم لما انتصف النهار وقف وسط جيوشه فى مهابة وجلال ، وباشارة من يده ، دوى فى الفضاء فجأة صوت الطبول وضرب النقرزان ، وكأنما زلزلت الأرض وانتفضت السماء بقصف الرعود ، فامتلأت بالدهشة والروعة قلوب جنودنا الذين ماسمعوا من قبل هذا الصوت الرهيب . ثم بدأت الخيل والأرجل تسير معا ، فى خطوة واحدة ، وفى كل جانب .. وبدأ الهجوم !

« وتنقلت فرق العدو على رقعة الميدان بنظام عجيب – كأنما لاعب ماهر ينقلها على رقعة شطرنج ! – واندفع مشاتهم نحو رجالنا فأصلوهم بالنار الاغريقية من آلات يسمونها الزراقات – وهى نوع من الأقواس – ثم انقض

العرب ينطلقون لملاقاة الصليبيين فى احدى المعارك .

فرسانهم فى سرعة عظيمة وحماس هائل على فرقة « الكونت دانجو » ـ شقيق الملك ـ فأنزلوا بها هزيمة شنيعة . وكان الكونت واقفا على قدميه ، ومعرضا نفسه للموت المحقق لولا أن أنقذه أخوه الملك ورد الأعداء عنه .. غير أن الجيش أصيب بضربة قاسية ، فبين السبع فرق التى يتكون منها هلكت اثنتان : احداهما بقيادة « فريبار وليم دوسوناك » ، قائد فرسان المعبد ، وكان قد دخل المعركة بمن بقوا على قيد الحياة من فرقته بعد موقعة يوم الثلاثاء المروعة . ولما كان شاعرا بضعفها فقد أقام أمام معسكرها حاجزا من المتاريس يتكون من بعض ماغنموه من العتاد وما جمعوه من كتل الخشب . ولكن هذا كله كان عبثا لا طائل تحته ، فقد أحرقه المسلمون بنارهم ، وأطبقوا على رجال الفرقة فى شدة وعنف ، وسرعان ماقضوا عليهم ! .. وكان قائد الفرقة « دوسوناك » قد فقد احدى عينيه فى معركة يوم الثلاثاء ، ثم فقد فى هذه المعركة عينه الأخرى .. وفى النهاية سقط قتيلا وهو يدافع ، لآخر رمق ، دفاع المستميت .. »

جثث الفرنسيين تغطى مياه النيل !

◈ **أما** الفرقة الأخرى التى فتك بها المسلمون فكانت بقيادة « الكونت دى بواتييه » ، وهى تتكون من المشاة ، ماعدا الكونت فقد كان راكبا جواده ، فأبيدت هذه الفرقة عن آخرها وأسر قائدها .. ولكنه تمكن من الفرار ، وعاد الى معسكرات الجيش .

والفرقة التالية لفرقة الكونت دى بواتييه ـ وهى فرقة مشاة ـ كان على رأسها النبيل « جوزيران دى برانسون » ، وكانت أضعف الفرق جميعا ، فنفذ العدو بين صفوفها فى كل جانب ، وأوشك أن يبيدها عن آخرها .. لولا أن أدركها

« الكونت دوكون » بجماعة كبيرة من جنوده حملة الأقواس من الضفة الأخرى للبحر الصغير ، فأنقذوا بعض رجالها ، وان كان « دى برانسون » نفسه قد سقط قتيلا ، وسقط معه صفوة فرسانه ، ومعظم البواسل من جنده !

ثم توقف المسلمون عن القتال ، وتركوا الفرنسيين فى أخطر المواقف وأحرجها ، فان محاولتهم الهجوم على المسلمين بعد ذلك كانت مستحيلة ، فى حين أن بقاءهم فى أماكنهم كان

معركة بين المصريين وبين الصليبيين

معناه الهلاك المؤكد ! ومع ذلك فالغريب أنهم لم يتحركوا ، وأضاعوا الوقت ـ كما أضاعوه من قبل فى قبرص ودمياط ! ـ فكان كل يوم يمر يزيد مركزهم سوءا ، اذ تفشى فى معسكرهم الوباء الفاتك ، ولم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم الا أن يلقوها فى النيل والقناة ! .. غير أنه لم تمض أيام قلائل حتى بدأت هذه الجثث تطفو على وجه المياه . ويصف لنا

« جوانفيل » وصفا مؤلما ذلك المنظر الشنيع ، حيث تراكمت على سطح المياه طبقة من الجثث المشوهة لهؤلاء التعساء !

وقد ألقى الصليبيون جسرا صغيرا من الخشب على القناة ، ولكنه كان منخفضا جدا ، فسرعان ما تكدست عليه جثث الموتى ، وقد كانت الأمواج تأتى بها بلا انقطاع .. فيئس الفرنسيون ونفدت حيلتهم ، ولم يسع الملك الا أن يستأجر عمالا بأجور فاحشة لينتشلوا هؤلاء الموتى من فم النهر ، وليدفنوا فى أرماس الأرض جثث الفرنسيين .. أما جثث المصريين فيدفعونها مع التيار لكى يكون النهر لحدها ..

وبسرعة مريعة تفشى الوباء ، ثم لما نفدت المؤونة وقلت التغذية ، ظهر أيضا مرض (الاسكربوط) فى أفظع درجاته ، فأصيب به معظم رجال الجيش ، وحتى الخيل - كما يقول المؤرخون العرب - قد لحقها الداء وماتت . ومع كل هذا فان الفرنسيين - الى ذلك الوقت - لم يفكروا فى الانسحاب !

وفى اليوم التاسع عشر بعد المعركة - أى فى ٢٤ فبراير - وصل « طوران شاه » الى المنصورة ، فبمجرد دخوله المدينة نودى به سلطانا على مصر ، ووضعت « شجرة الدر » سلطتها فى يديه .. وعندئذ فقط أعلنت وفاة السلطان نجم الدين !

الفصل الرابع

انسحاب الجيش الفرنسى

❖ دبر السلطان الجديد خطة يسدد بها الضربة القاضية الى الجيش الفرنسى — فانه حتى ذلك الوقت كان الاتصال بين دمياط والمعسكر الفرنسى غير مقطوع — ومن ثم أمر « طوران شاه » بنقل السفن المصرية عن طريق البر ، وانزالها ثانية فى ترعة المحلة — خلف المعسكر الفرنسى — وبذلك يمكن عرقلة اتصال الفاتحين بأسطولهم !

وفعلا حملت السفن من النيل عند سمنود ، ونقلت على البر الى الترعة الكبيرة المسماة « ببحر شبين » ، والتى تتفرع عن ترعة المحلة • وهنالك كمنت هذه السفن فى مخبأ مستتر متربصة للقافلة التى تحمل مؤن الفرنسيين عبر النهر • وفى ذلك اليوم كانت مجموعة من مراكب المؤونة آتية من دمياط ، فانقض المسلمون عليها وأسروا قافلتين تتكونان من نحو ثمانين سفينة • وقتلوا حراسها واستولوا على كل مافيها !

وكانت النتيجة أن ضنكا قاسيا ، بل مجاعة مروعة ، أصابت المعسكر الفرنسى ! وياله من ألم صارخ ذلك الذى يصف به جوانفيل حالهم حينذاك ، فيقول : « نقل هؤلاء الغادرون سفنهم على الأرض ، وأنزلوها الى الماء خلف معسكرنا ، فما أشد دهشتنا جميعا اذ رأينا كل سفينة تذهب لجلب المؤونة من دمياط ، لاتعود أبدا ! •• ولم نكن نتصور السبب الحقيقى لهذا التخلف ، حتى أفلتت احدى سفن «الايرل أوف فلاندرز» فأخبرتنا بتلك الحيلة الجهنمية التى دبرها سلطان المسلمين ، فقضى بها علينا ! »

ولا شك أن الملك وبعض رجال حاشيته لم يلحقهم الجوع ولا أثخنتهم الجراح ، فكان من الممكن أن ينجوا بأنفسهم .. ولكن قلب الملك أبى عليه أن يتخلى عن رعاياه وهم واقعون فى براثن تلك النكبة المريعة ، ومن ثم رضى — مضطرا — أن يطلب الهدنة من السلطان . ولكنه عرض شروطا لم تكن معقولة — وهو فى مثل موقفه — ولا مناسبة للظروف المحيطة بجيشه : فقد اشترط فى نظير قيامه بتسليم دمياط ومغادرته لمصر أن يتنازل السلطان لقومه عن أورشليم وبعض المدن الأخرى فى فلسطين !

وكان نصيب هذا العرض بالطبع هو .. الرفض !

وعلى الرغم من أن الجيش الصليبى كان مهددا اذ ذاك بالفناء التام ، فقد حدثت فترة أخرى من التأخير الذى يبعث على العجب .. وأخيرا قرر الملك الانسحاب ، فأعطيت الأوامر بأن على جميع الكتائب التى فى شمال البحر الصغير أن تتقهقر أولا . غير أنه أثناء تنفيذ هذا الأمر قام العدو بهجوم عنيف ، فزادت مهمة الانسحاب صعوبة . وقد بذل الفرنسيون كل مافى طاقتهم من جهد لنقل المخازن والمهمات وتغطية عبور الملك وحاشيته ، ثم أخيرا نقل بقية القوات .. فى الوقت الذى كانت فيه مؤخرة الجيش معرضة لأشد الضربات — حتى لقد كادت تتخلف عن باقى الحملة ، لو لم ينقذها الكونت «دانجو» ونخبة قوية من فرسانه !

وبعد أن تم الانسحاب على هذه الصورة ، عاد الملك فطلب فتح باب المفاوضات مرة أخرى مع السلطان . غير أن المسلمين كانوا أعلم هذه المرة بما يكتنف الجيش الفرنسى من الشدائد والضائقات : اذ نقص عدده ، وتحطمت عدته ، ونفدت مؤونته ، وصار فى حال من البؤس لا ينتظر له من بعدها قومة ولا حياة . فطلبوا من ذلك الجيش العاجز المرزوء ضمانة للانسحاب من دمياط — وكان المفروض أنهم سيحجزون أحد أشقاء الملك

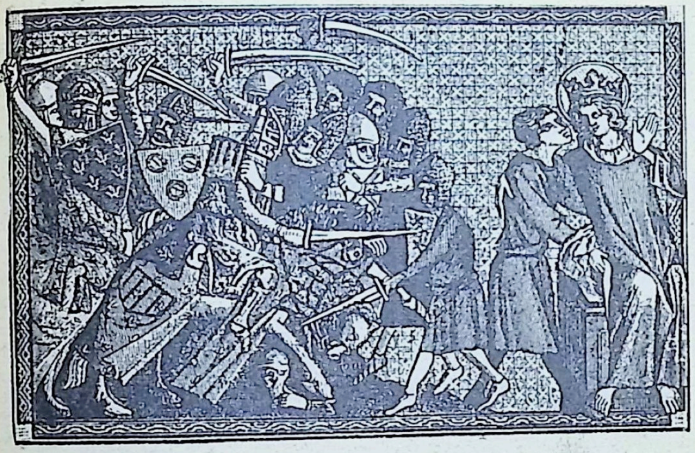

تملك المرض والاعياء لويس التاسع أثناء الانسحاب

كرهينة لديهم ، ولكنهم رفضوا أى رهينة غير الملك نفسه ! ـ وقد قالوا ذلك لسفيره النبيل « جيـــوفرى دوسيريجين » ، فأجابهم بأنهم لن يستولوا على شخص الملك مهما فعلوا ، وأن الفرنسيون يفضلون ألف مرة أن تقطع رقابهم جميعا ، عن أن يقال انهم أعطوا ملكهم رهينة عنهم ! »

وظلت الحال هكذا بغير وصول الى أى نتيجة بعض الوقت ، والمسلمون يصرون على أسر الملك دون غيره ، والفرنسيون يأبون أن يسلموا ملكهم ! .. حتى اشتدت عليهم وطأة الجوع وطوت بطونهم قســـوته ، وازداد فتك الحمى وكثر بينهم ضحاياها ! .. فثارت نفس الملك ، وصاح فى حاشيته أنه لن يستطيع بعد ذلك أن يبقى على ظهر سفينته آمنا ، بينما رعاياه يكابدون ألم المسغبة ، ويغالبون سكرات الموت .. فصمم أن ينزل اليهم ، ليعيش بينهم ، ويموت مثلهم ، وقد فرض على

نفسه الحرمان ، وضرب حوله نطاقا من الشقاء الذى يكتنف جنوده ، مفضلا أن يهلك معهم عن أن يهجرهم ويتخلى فى المحنة عنهم . ولما رأى حالة المرضى تسوء ، ويشرف أكثرهم على الموت ، أمر بأن يحملوا على ظهر السفن ليعالجوا فى دمياط . ولكنه – على مايبدو – لم يحسب حساب السفن المصرية المرابطة فى النيل خلف معسكرهم ، والتى كانت واقفة لسفنهم بالمرصاد ، ولم تفلت احداها من رقابتها الصارمة !

فياله من موقف عصيب ، أبدا ماوقع جيش فى مثله !! ..

فها هو ذا القوت قد نفد ، والجوع ينهش بأصابعه الرهيبة بطون أبناء فرنسا ، والأرض مفروشة بأجساد مرضاهم ، والفضاء مرتجف بأنات الألم وحشرجة الموت المنبعثة من أفواههم . وقد ماتت خيلهم ، وقتل صفوة محاربيهم وزهرة شبابهم .. وهاهم أولاء محطمين يائسين بائسين ، ليس فى استطاعتهم الهجوم . ولو غالبوا الجوع والمرض والموت والحظ العاثر ، وعزموا على معاودة جهادهم ، اذن لتحطمت عزيمتهم أمام عدو يختال بالنصر ، ويضمر لهم الكراهية !

وقد أخفقوا فى مفاوضات التسليم ، فلم يبق أمامهم مايفعلوه غير أن يعودوا .. ويالها من عودة قاتلة ، محفوفة بالخطر !

الهفوة التى كلفت الفرنسيين غاليا !

◆ **وفى** انسحاب الفرنسيين ، عادوا فارتكبوا تلك الغلطة الشنيعة التى وقعوا فيها من قبل ، اذ ولوا فى عجلة وذعر ، فنسوا أن يتلفوا القنطرة التى عبروا بها (البحر الصغير) ، ومن ثم قدموا بأنفسهم للجيش المصرى المعادى ممرا يجتازه فى أعقابهم ، ويضيق عليهم الخناق آخر الأمر ، ويسقى كأس المنية من بقى منهم .. فيابئسه من اهمال قبيح ، وغباوة فاضحة ، وصموا بها أنفسهم !

وكان الحظ الوحيد الذى يمكن الانسحاب فى اتجاهه هو الجسر الطينى ، المرتفع على حافة النيل ، فان طريق الحقول والقرى كان يقطعه على طول المسافة كثير من القنوات العميقة ، ومجارى المياه المتخلفة عن الفيضان ، فضلا عن أنه كان مخفورا فى أكثر نواحيه بقوات العدو !

وقد بدأ الانسحاب فى مساء ٥ أبريل سنة ١٢٥٠ ، حين تحرك الجيش الفرنسى متجها نحو الشمال ، تاركا خلفه كما يروى مؤرخو العرب أكداسا مكدسة من الخيام ، والذخائر ، والمهمات ، وكل حاجيات الجيوش .. تركوها غنيمة للمسلمين .

وكان الجيش المصرى فى تلك الأثناء يجوس طول الليل أنحاء الميدان ، ويتصيد من يقع فى يديه من المتعبين أو الهاربين . بينما كانت مؤخرة الجيش الصليبى بقيادة النبيل « والتر دى شاتيلون » ، تبذل جهد الجبابرة فى تغطية الانسحاب ، ولكن عبثا حاول هؤلاء الأبطال أن يصدوا تلك الموجات العنيفة من قوات المصريين وهى تلطمهم فى ظهورهم بقسوة ، وتتساقط كالصخور المسنونة فى أدبارهم .. فما كان أكثر صرعاهم ، وما كان أقسى ماكابدوه !

ويالها من صورة تقطر بالألم والدماء ، صورة ذلك الجيش العاثر المتعثرفىالطريق ، وأقدامه لا تقوى على حمله .. واولئك القتلى ، يتساقط الطير على أشلائهم . وهؤلاء الجرحى تلغ الضوارى فى دمائهم . وتلك الأصوات المفزوعة ، وتلك الصيحات الضارعة ، وصراخ المتوجعين والهالعين ، وبكاء الفرسان حين يبكون . والأنين الذى يرتجف به الفضاء ، وتهلع له القلوب !

أولئك هم أبناء فرنسا يسقطون كقطيع أنهكه طول المسير ، فترامى على الأرض لاهثا .. وهاهى قاماتهم الفارغة تنهار وتتهاوى ، لتتلقف أعناقهم السيوف التى لاترحم ! .. هنالك

تختلط حشرجة الأرواح بوقع حوافر الخيل ، وتنبعث مع رائحة الدماء صلصلة السيوف ، وجلجلة الدروع ، وقعقعة العظام بين الضلوع ٠٠ والكل مندفع الى الأمام فى ذعر قاتل ، وفى اختلاط وجنون ٠٠ !

على هذه الصورة المروعة تبع المسلمون الجيش المنسحب ، واستمر النضال ، وطالت المطاردة ، حتى وصلوا الى (فارسكور) - وهى فى ثلثى المسافة الى دمياط - وهنالك توقفوا ٠٠ اذ تعب العدو من القتل والتذبيح !!

ويقرر المؤرخون العرب أن عدد الذين قتلوا من الصليبيين فى هذا الانسحاب بلغ ثلاثين ألفا ! وتلك ولا شك مبالغة كبيرة ، الا أنه حتى لو كانت الخسارة قد بلغت نصف هذا العدد ، لكفى ذلك لاعتبار هذه النتيجة مفزعة ، ونكبة أى نكبة ٠٠

وأما من بقوا أحياء من الجيش الفرنسى بعد ذلك ، فكان عليهم الاختيار العسير بين : اعتناق الاسلام ، أو الموت ، أو العبودية !

كيف أسر الملك لويس !؟

❖ **ويروى** « جوانفيل » قصة اعتقال الملك - وقد سمعها بعد ذلك من فمه - فيقول : « ٠٠ تخلف الملك عن فرقته ، وانضم الى فرقة النبيل « والتر دى شاتيلون » ، الذى كان يقود مؤخرة الجيش ٠ وكان « لويس » ممتطيا صهوة جواد صغير ، ولا يرافقه من رجاله سوى ذلك الفارس الأمين ، النبيل « جيوفرى سيريجين » ، الذى تبعه الى مدينة كاسيل - ولا نعلم موقعها على الخريطة الآن - حيث أسر الملك ٠ غير أننى علمت أنه قبل أن يتمكن المسلمون من أسره ، دافع عنه « جيوفرى » دفاعا عظيما ، وراح يصد جموع المهاجمين عنه

أسر لويس التاسع وشقيقيه كونت دى بواتييه وكونت دانجو

— كما يصد الخادم عن سيده أسراب العدو — اذ جرد سيفه فى وجوههم ، وانقض عليهم يقاتلهم ، فما فتىء يكر عليهم ويغالبهم ويذودهم عن مليكه ، حتى وصل به الى مدينة (كاسيل) .. غير أنه كان من المستحيل مواصلة الهرب بعد ذلك ، اذ بلغ الاعياء بالملك مبلغا قاتلا ، وبدا كأنما يوشك أن يموت ! فتوقف وحاشيته الصغيرة بالقرب من بلدة تدعى « منية أبو عبد الله » على مسيرة بضعة فراسخ فى الشمال من

المنصورة (وتسمى الآن « عبيد الله ») ، وهنالك أحاط بهم العدو احاطة كاملة ، وأصبحت المقاومة اذ ذاك عبثا .. فسلموا أنفسهم بعد أن أمنهم العدو على حياتهم . وفى الحال أخذ المسلمون الملك على احدى السفن ونقلوه الى المنصورة ، حيث اعتقـل فى بيت « ابراهيم بن لقمـان » كاتم أسرار السلطان . وهنالك ألقوه فى غرفة بعد أن قيدوه بالسلاسل ، وأبقوه فى حراسة الخصى « سهيل » ، الذى صدرت اليـه الأوامر بأن يعامله بالاحترام اللائق بمكانته السامية .

وهذا البيت الذى أسر فيه الملك مازال موجـودا ـ أو بالأحرى بقاياه ـ والحجرة التى وضعوه فيها تقع فى الطـابق الأرضى منه ، وهى ملاصقة لجامع « الموافى » القائم فى وسط المدينة . وهذه الحجرة صغيرة الحجم ، لايزيد اتساعها على أربعة أمتار مربعة ، وجدرانها مبنية من اللبن الاسود ، وغير مبيضة أو مطلية ، ويصلها بالشارع باب واحد . وقد زرت المنصورة منذأكثرمن ربع قرن ، وجمعت بعض المعلومات عن هذا البيت ، غير أنه لم يكن أحد من السكان فى ذلك الوقت ـ سـواء الوطنيين أو الأجانب ـ قادراً على اعطاء أى بيان عنه . بل لم يكن أحد من هؤلاء الذين قصدتهم يبدو أنه يعرف شيئا بالمرة ، حتى عن لويس التاسع نفسه !!

« لويس التاسع » فى الأسر

◆ **كان** النصر الذى أحرزه « طوران شاه » سـاحقا ، ساطعا ، مجيدا ، حتى لقد استخفه الطرب ، واسـتبد به الزهو ، فود لو يسير الى كل فرد من رعاياه ، ويسر اليـه نصره ، وفخره ، وفرحه !

فما أن تم اخضاع الجيش المغير ، حتى كتب السلطان بخط يده كتابا للأمير « جمال الدين يغمور » ، حاكم دمشق ، يقول

له فيه : « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدث ، وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، فبشر المجلس السامى الجمالى ، بل بشر المسلمين كافة ، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فانه كان قد استكمل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا ان لاتيأسوا من روح الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة ، وهى سنة ثمان وأربعين وستمائة - تمم الله على الاسلام بركتها - فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة ، وخلقا لا يعلمهم الا الله ، جاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق ، فلما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ماوقع الاتفاق عليه بينهم وبين الملك الكامل ، فأبينا .. ولما كانت ليلة الأربعاء ، تركوا

قطعة من النقود ضربت فى عهد الملك الكامل

خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا فى آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزى والويل ، فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه فى اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيس الى الميناء وطلب الأمان ، فأمناه وأخذناه وسلمناه دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته . »

وبعث مع الكتاب غفارة ملك الفرنسيس ، فلبسها الأمير

جمال الدين بن يغمور ، (وهى « أسكولاطا » أحمر بفرو سنجاب) ، فقال الشيخ نجم الدين بن اسرائيل :

ان غفارة الفرنسى جاءت
فهى حقا لسيد الأمراء
كبياض القرطاس لونا ولكن
صبغتها سيوفنا بالدماء

وكتب أبياتا أخرى من الشعر يقول فيها :

أسيد أملاك الزمان بأسرهم
تنجزت من نصر الاله وعوده
فلازال مولانا يبيح حما العدا
ويلبس أثواب الملوك عبيده

وثمة شعر آخر لجمال الدين بن مطروح عن رحيل ملك فرنسا يقول فيه :

قل للفرنسيس اذا جئته
مقال نصح عن قؤول نصيح
آجرك الله على ماجرى
من قبل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغى ملكها
تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم
ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم
الا قتيل أو أسير أو جريح

وفقـك الله لأمثالهـا
لعـل عيسى منـكم يستريح
ان كان باباكم بـذا راضـيا
فرب غش قد أتى من نصـيح
قل لهـم ان أضمروا عـودة
لأخذ ثار أو لنقـد صـحيح
دار « بن لقمـان » على حالهـا
والقيـد باق والطـواشى صبيح

واذن فقد أسر الملك ، ويؤكد الكاتب المؤرخ « سعد الدين » انه لو أراد الملك لاستطاع أن ينجو بنفسه ، ولكنه لم يرد أن يترك جنده ، أو يتخلى للأعداء عنهم ، بل بقى مختـارا ليشد أزرهم ، ويقوى عزائمهم ، ويشرب ـ آن حزب الأمر ـ نفس الكأس التى يشربون !

على أن السلطان قد قابل أسيره فى اجلال وتأدب ، ولا غرو فقد كان « لويس » ـ وسط كل ماهو فيه من اذلال واهانة ـ تحوطه هالة الملك ومهابته !

غير أنه اذا كان الملك ـ ومعه بعض النبلاء ـ قد عوملوا بشىء من التساهل والرحمة ، فان شيئا من ذلك التساهل أو من تلك الرحمة لم يبسط لبقية الأسرى من الجنـد ، فكم أذاقوهم من الشقاء والذل .. وقد كتب المقريزى يقـول : « ورسم الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطوارى ـ أحد من وصل بصحبته من الشرق ـ أن يتولى قتل الأسرى ، فكان يخرج منهم كل ليلة ثلاثمائة رجل ويقتلهم ويلقيهم فى البحر .. حتى فنوا ! »

وقد استبقى السلطان فى أول الأمر الصناع وأصحاب الحرف ، بقصد الانتفاع بهم .. ولكنه بعد ذلك أذعن لشكاية صناع القاهرة ، فأعمل السيف فى رقابهم ! »

ويقول جوانفيل ان « عددا لاحصر له من الجنود والفرسان سيقوا وأدخلوا كقطعان الغنم فى حظيرة من الطين ٠٠ ثم سأل الحراس كلا منهم عما اذا كان يرضى أن يرتد عن دينه ويعتنق الاسلام ٠٠ فالذين أجابوا بالرضى عزلوا جانبا ، وأما الذين رفضوا فقد قتلوا فى الحال ٠ »

وقد ارتد كثير من الأسرى عن دينهم ، وأسلموا ، واندمجوا فى أهل البلاد ـ فلقد قرأت فى المراجع مايؤيد هذا ، وكذلك سمعته من أشخاص توطنوا منذ زمن بعيد فى المنصورة ـ وهم يعززون قولهم بأن سكان الأقاليم التى تحيط بهذه المدينة تبدو على سيمائهم دلائل واضحة عن اختلاطهم بالدم الأوروبى ، الذى تسرب اليهم من هؤلاء الأسرى الفرنسيين ٠

القسوة سنة الحروب ٠٠ والويل للمغلوب !

◆ **وقد** تبدو هذه المعاملة التى لقيها الأسرى الصليبيون ـ للجيل الحديث ـ بالغة القسوة والفظاعة ٠ غير أن الواقع أن الحروب فى القرون الوسطى على العموم كانت تشوبها الوحشية وانعدام الرحمة ، وكانت الحروب الدينية على الأخص أشنع مثل للقسوة البشرية ، والتجرد عن كل عاطفة وشعور ٠٠ **بحيث لو أن الآية قد انعكست ، وكان النصر حليف الصليبيين ، لأذاقوا المسلمين نفس ماذاقوه على أيديهم ، ولعاملوهم بعين الشراسة والحيف والاذلال ٠٠ فكلنا يعرف ماعاناه المصلحون والهراطقة الدينيون فى أوروبا ، على أيدى هؤلاء الصليبيين أنفسهم من صنوف الاضطهاد والتنكيل ، وأفظع أنواع القسوة ٠ بل ان الكونت دانجو ، شقيق الملك لويس ، الذى ذاق أمر الآلام فى هذه الحملة ، هو نفسه الذى أبدى أبشع أنواع الوحشية فى معاملته لأعدائه فى ايطاليا وصقلية و (بروفنس) !**

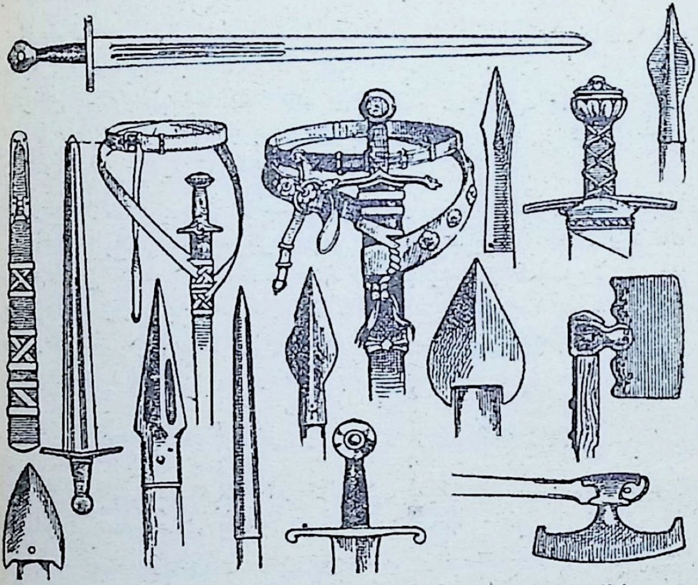

طائفة من الأسلحة التي استخدمت في الحروب الصليبية ، وترى بينها السيوف والسواطير والسهام والرماح والقضبان

غير أنه ، وسط هذه القساوات البالغة ، كانت ثمة مظاهر للشفقة والرحمة تبدو من حين الى حين . ومن ذلك ماحدث لجوانفيل : فقد كان على ظهر سفينته ، يحاول أن يشق طريقه بها في النهر . وحوالى الفجر ، وصلت به السفينة ــ وسط زوبعة عنيفة من ريح الخماسين ــ الى فم ترعة المحلة ، حيث كانت سفن السلطان تسد النهر . وهنالك جنحت سفينته على شاطىء طيني ، وانغرست فيه . فسارعت صوبها أربعة من مراكب المسلمين ، تقل ألف رجل ، وألقت احداها مراسيها

بقربها .. واذ ذاك أيقن جوانفيل أنه لا محالة ضائع !
ولكن أحد المسلمين ـ وهو من رعايا الامبراطور فردريك الثانى ـ سبح الى سفينة جوانفيل ، وصاح به أن يقفز فى النهر لكى ينجو ، بينما كان المهاجمون مشغولين بباقى البحارة .. فأطاعه « جوانفيل » ، ولكنه كان من الضعف والاعياء بحيث لا يقوى على السباحه ، لولا أن ذلك المسلم النبيل أخذ بيده حتى وصل الى السفينة ، وهنالك أنقذه من الموت . ويقول جوانفيل ان ذلك الرجل كان سببا فى انقاذه مرة أخرى من القتل المحقق ، عند نزولهم الى البر ، اذ كان السيف مصلتا على عنقه ، ويوشك أن يطيح برأسه ، لولا أن مد هذا الرجل يديه نحو مهاجمه صائحا : « ابن عم الملك .. !! ابن عم الملك .. !! »

وعندما أخذوه الى الضباط المسلمين ، عاملوه برفق ، وأضحت حياته فى أمان ، ولو الى حين . ولكنه شاهد اعدام جميع المرضى والضعفاء ، فلما اشمأزت نفسه من هذا المنظر وقال للضباط : « ان صلاح الدين ما كان ليسمح بمثل هذه الأعمال ! » ، أجابوه فى برود : « نحن نعدم رجالا لانفع لهم ، لأنهم خائرو القوى ، فلا يصلحون لأى عمل » ! .. وعلى كل حال ، فقد أفادت جوانفيل علاقته بالامبراطور فردريك الثانى ، فان مسلمى مصر والشام كانوا يكنون لهذا الملك احتراما واعجابا عميقين .

المساومة على فدية اطلاق سراح الملك !

◆ وفى ذلك الوقت ، كانت المفاوضات دائرة مع الملك من جهة ، ومع النبلاء من جهة أخرى . ولكن كان فوق مقدور الملك أن يستجيب لطلبات السلطان ، الذى أصر على تسليم بعض الحصون فى الأرض المقدسة ، وبعض القلاع التابعة لفرسان المعبد ، أو فرسان رودس . وقد إستعمل المفاوضون

مع الملك ـ لكى يحملوه على الخضوع لمشيئتهم ـ كل وسائل التهديد بالعذاب والموت ، ولكنه لم يتزعزع ، بل قال لهم انه طالما كان أسيرهم ، فلهم أن يفعلوا به مايشاؤون !

وأخيرا تم الاتفاق على تسليم مدينة (دمياط) بكل مافيها . وعلى أن تدفع الملكة ـ التى كانت هناك اذ ذاك ـ فدية قدرها مليون جنيه بيزنطى ـ أى نصف مليون من الجنيهات الذهبيه ـ غير أن الملك حين اقترح عليه هذا الشرط الأخير ، قرر بشهامة وأنفة أنه سيدفع هذا المبلغ عن رعاياه . وأما فديته هو فهى تسليم مدينة دمياط نفسها . وكانت حجة الملك أن مقامه من السمو بحيث لايصح أن تقدر فديته بمال ! .. ويمكننا أن نتصور تلك البسمات المؤدبة ـ وان كانت تخفى وراءها الهزء والسخرية ـ التى ارتسمت على شفاه المسلمين اذ ذاك !

غير أنهم أعجبوا مع ذلك بهذه النفس الكريمة العالية ، فانه حين سمع السلطان بما حدث ، صاح قائلا : « بشرفى ان هذا الفرنسى شهم وحر النفس ، طالما انه أنف المساومة فى هذا المبلغ الفادح ، بل قبله بلا جـدال ! .. اذهبوا وقولوا له عنى ، اننى نزلت له عن مائتى ألف قطعة ، هدية منى اليه ، فلن يدفع سوى بقية المبلغ »

وبعد أن تم هذا الاتفاق ، نقل الملك ومعه بعض النبلاء الى فارسكور ، فى الطريق الى دمياط ، وكأنما زال كل خوف ، وأصبح هؤلاء الأسرى فى أمان .. ولكن شد ماكانت الدهشة حين شاع بعد قليل أن السلطان ـ بموافقة الأمراء ـ قد عدل عن رغبته فى اطلاق سراح أسراه ، بل عقد النية على انه ـ بمجرد تسليم دمياط ـ سوف يقطع أعناقهم جميعا ، بلا تمييز ، سواء كان فى ذلك الملك أو رعاياه !!

الفصل الخامس

الثورة تختمر ضد « طوران شاه » !

◆ **وحينئذ** ٠٠ انفجر بركان ثورة مفاجئة ، فانقلب كل شيء ، وتبدل سير الامور !

ذلك أن « طوران شاه » كان قد ورث عن أبيه « نجم الدين » ذلك الوجه العبوس ، والطبع المتغطرس ، فأثار طغيانه واستبداده المبكر استغراب الأمراء المصريين ٠ وكان قد أتى **معه من حيفا ببعض الندماء الشبان ، وهؤلاء سرعان ماتسلطوا على تفكيره ، وتفردوا باعزازه ، وعنايته ، فاستفزوا بذلك حقد الأمراء وغيرتهم ، اذ طرد طوران شاه كثيرا منهم من وظائفهم ، ابتغاء مرضاة هؤلاء الندماء ، وجردهم من مظاهر الشرف والسلطان ليسبغها على أولئك** ٠٠ وبدلا من أن يعترف بالجميل الذى أسداه اليه أمراء مصر ، راح يبدى فى كل تصرفاته الريبة وانعدام الثقة فى أولئك الرجال ، الذين صدوا عن بلاده غزو الغزاة ، وبلغ من اخلاصهم له أن نادوا به سلطانا وهو مايزال غائبا فى بلاد نائية ، على مسيرة عشرات الأيام ٠٠

وكان « طوران شاه » قد وعد القائد « أقطاى » بأن يجعله حاكما للاسكندرية ، ولكنه أخذ يسوف ويماطل فى الوفاء بهذا الوعد ، فخلق له من ثم فى هذا الرجل عدوا رهيبا ٠٠ فضلا عن أن ندماءه الخليعين قد أثاروا حقده وضغينته على السلطانة والأمراء ، اذ مافتئوا يرددون على مسمعه أنه ليس سلطانا الا بالاسم ، وأما السلطة الحقيقية فهى فى أيدى هؤلاء الأمراء وعلى رأسهم شجرة الدر ، ويسخرون منه قائلين :

« مامجيئك الى مصر اذن ؟ أفما كان الأفضـــل أن تبقى فى العراق ؟ » .. ثم راحوا يوسوسون له بأن يسارع فى الاتفاق مع ملك فرنسا على أن يسلم دمياط ويغادر أرض مصر ، وبذلك يتخلص من نير الأمراء ويخلو له الجو ، فيمكنه اذ ذاك الانتفاع بخدمات ندمائه المخلصين ! .. ووجد الدس تربة صالحة له ،

فارس من المسلمين

فنما وأثمر ، وكان من ثماره أن انفتحت هوة عميقة من العداء والبغضاء بين السلطان وقواد الجيش ، وازدادت تلك الهوة مع الأيام عمقا !

وكان من ثمار ذلك الدس أيضا أن نشب شقاق عنيف بين « طوران شاه » وشجرة الدر ! .. فبالرغم من أنها خدمته بكل

اخلاص ، وبالرغم من أنه يدين لها بعرشه وتاجه ، وبنجاة مصر من أعدائها فى غيبته ، فقد بدأ فى مضايقتها واستفزازها بأن طلب منها أن تقدم له حسابا مفصلا عما انفقت من أموال الدولة ، وعن المبالغ الضخمة التى تركها فى الخزانة أبوه نجم الدين ، مع بيان كامل عن الثروة الخاصة بهذا الأخير .. فأعلنت السلطانة فى سخط وحنق أن المال قد صرف على المنفعة العامة ، وعلى تلك الحرب الملعونة « ضد الكفار » !

واذ أحست شجرة الدر بالخطر المحدق بحريتها وحياتها ، تملكها الانزعاج والذعر ، والتجأت للأمراء البحريين الذين كانوا منحازين لها ، لما يكنونه نحوها من الحب والاخلاص ، ولما يشعرون به من القلق على أنفسهم من تصرفات السلطان ، اذ أنه كان ـ الى جانب كل تلك النواحى القبيحة فى طبعه ـ سكيرا ماجنا ، عاكفا طيلة وقته على الشراب والفجور . ولم يكونوا يجهلون انه ـ بين خمره وسكره ، وفى وسط عشرائه الهازلين ـ كان يفوه بأوقح التهديدات ضدهم .. من ذلك أنه راح فى احدى الأمسيات ـ وهم على مائدة العشاء ـ يضرب بسيفه رؤوس الشموع الموقدة أمامهم ، صائحا مع كل ضربة : « هكذا سأفعل بفلان . » و « هكذا سأقطع رأس فلان . » ، ذاكرا أسماء كبار الضباط فى الجيش .. ومن ثم فقد عقدوا النية فيما بينهم على التخلص منه قبل تسليم دمياط .. والاستئثار بسلطته !

وكان « طوران شاه » قد أمر بتشييد سرادق فخم على ضفة النيل بالقرب من فارسكور ، مسور بسياج جميل ، وفى حديقته الغناء حمام فاخر ، وعلى جانبيه أبراج من الخشب أحدها أعلى من باقيها وقريب الى النهر .. وأولئك الذين أقاموا فى مصر لابد يذكرون ذلك الرونق والبهاء اللذين تقام بهما هناك ـ فى مناسبات الزواج والأعياد العامة ـ خيام خشبية مكسوة بالحرير والدمقس ومحلاة بالستائر المخملية المزركشة،

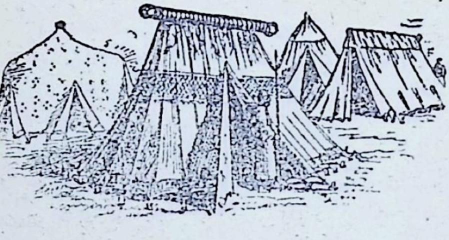

نماذج من خيام حملة لويس التاسع

ومفروشة بأبدع الأبسطة والطنافس ، والأنوار تتلألأ فى جوانبها ، منعكسة بأزهى الألوان على المرايا والنجف ، حتى لتضاهى فى رونقها أبهى القصور ، وتوشى بخمائلها العسجدية ضفة النيل الوادع الجميل • فلا شك أن سرادق السلطان كان على هذا الطراز ، تزيده فخامة الملك وأبهة الجاه زينة ورواء •

الاعتداء الأول على حياة السلطان

◆ **وفى** فجر يوم أول مايو ، تناول طوران شاه طعام الافطار مع بعض ضباطه ، ثم قام ليستريح فى ذلك السرادق •• وهناك اقتحم مضجعه فجأة أحد الأمراء — ويقال انه « بيبرس » ، قائد البحريين — وجرد سيفه ، ثم هوى به على رأس السلطان ! •• ولكن هذا تفادى الضربة بذراعه ، فمزقت أصابعه ، ثم أغمى عليه •• فلما رأى المعتدى دم السلطان متفجرا من جرحه ، تملكه الفزع مما اقترفه وانطلق هاربا •• وللحال ضرب النفير ، وهرول الى السرادق كثير من الضباط والخدم • فلما سألوا السلطان عمن جرحه ، أجاب بأنه « واحد من البحريين » ، فقالوا له : «يظهر أنه أحد الاسماعيليين» ، ولكنه هز رأسه قائلا : « كلا • أنا واثق أنه من البحريين » •• وعندئذ تقرر فى لوح القدر مصيره ، اذ عرف المماليك أن الأمر

لم يعد يحتمل صبراً : فاما حياته ، أو حياتهم !

مصرع السلطان .. وانتهاء حكم الأسرة الأيوبية !

◆ ونقل طوران شاه الى البرج ، وضمد جرحه .. ولكن سرعان ماتكاثر حول البرج عدد من المماليك - وعلى رأسهم « أقطاى » - ونادوه لكى ينزل اليهم ، فأدرك عندئذ أنه وقع فى أيديهم ، فراح يتوسل اليهم ، ويستدر عطفهم وشفقتهم ، ثم عرض عليهم ان ينجز وعده بجعل أقطاى حاكما للاسكندرية ، بل أبدى رضاه بأن يتنازل عن عرشه ، فى نظير أن يبقوا على حياته ، ويتركوه يعود الى حيفا ! .. ولكنهم ، خوفا على أنفسهم ، قسوا قلوبهم ، وضيقوا عليه الخناق .. فلما لم يسلم نفسه اليهم أتوا ببعض النار الاغريقية وألقوها على البرج ، فاندلعت فيه ألسنة اللهيب ! وعندئذ فزع السلطان ، وجرى نحو النيل لعله يصل الى احدى سفنه ، ولكنهم لحقوا به وهو يسبح وقتلوه فى الماء بجانب السفينة التي كان فيها جوانفيل ، وقد رأى بنفسه كل ماحدث !

وعلى الرغم من أن الجيش المصرى قد علم بكل ماكان يدور هنالك الا أنه لم يحرك ساكنا ، فان السلطان فى الفترة القصيرة التى قضاها فى الحكم ، عمل على أن يكون مكروها من الجميع ، بحيث لم تبذل الا محاولة وحيدة لانقاذه ، اذ تشفع من أجله حسام الدين أمير المماليك ، ولكن البحريين وقفوا فى وجهه وجردوا سيوفهم وصاحوا ان السلطان قد مات ! .. وكذلك حاول نائب خليفة بغداد ، وقد كان موجودا اذ ذاك فى المعسكر ، أن يتوسط لمساعدة السلطان ، ولكنهم اعتقلوه ، وهددوه بالموت لو أنه تدخل ، بل يقرر أحد مؤرخى العرب أن المماليك هددوه بأن يسحبوا مصر من السلطة الروحية للخليفة ، وكانوا يعنون بذلك أن يدخلوها فى زمرة العلويين ، المهرطقين .. ولم يكن هذا بالتهديد الهين ، اذ كانت مصر قد

ظلت قرونا عديدة ، قبل أن يتبوأ صلاح الدين عرش السلطنة فى سنة ١٢٧١ (٥٦٩ هـ) ، تابعة لمذهب على ٠ وكان حكامها خلفاء فاطميين متحيزين لبنى أمية ، فعودتها الى هذا المذهب بعد أن كانت تحت سلطنة خلفاء بغداد ليست بالأمر التافه ، وانما هى خليقة بأن تكون أمرا جد خطير ٠

وتركت جثة السلطان القتيل ملقاة على ضفة النهر يومين كاملين ، حتى قام بدفنها بعض الدراويش ! ٠٠ وبموت طوران شاه ، انتهى حكم الأسرة الأيوبية فى مصر ! ٠٠ (ومنذ ذلك الوقت ، يمثل تاريخ مصر عدد من السلاطين الذين حكموا البلاد بحكومة عسكرية مستبدة ، وأكثرهم لقوا حتفهم على يد مماليكهم أنفسهم ، أو على يد الأتراك الساخطين ، فلم يكن منهم غير ثلاثة ثبتوا على عروشهم الى آخر حياتهم/الطبيعية ، والحق ان المرء لكى يستبقى منصبا رفيعا متقلبا كعرش مصر ، ينبغى أن يتحلى بصفات نادرة) ٠

لوحة قديمة تمثل اغتيال احد سلاطين المماليك

هل عرض على الملك لويس حكم مصر ؟

◆ وعقب موت السلطان مباشرة جاء أحد مغتاليه الى الملك الفرنسى الأسير ويداه مازالتا ملطختين بدم القتيل ، وقال له : « ماذا أنت معطينى جزاء على قتل عـــدوك ، الذى لو عاش لقتلك ؟ » •• فلم يحر الملك جوابا ! ••واندفعت زمرة من أولئك الرجال المستهترين المتهورين الى السفينة التى كان عليهـــا جوانفيل ، وكثير من نبلاء فرنسا ، وكانت ســيوف أولئك المهاجمين مسلولة فى أيديهم ، وسواطير القتـــال معلقة فى أعناقهم ، وهم يصيحون ويصخبون ، فهرع جوانفيل الى السير بلدوين دبلن ، وكان يفهم العربية ، وسأله عمـا يقولون •• فأجاب قائلا : « انهم جاءوا ليقطعوا رؤوســنا ! » • وفى ذلك يقول جوانفيل : « رأيت أغلب رجالنا يلتفون حول راهب من دير (لاتيرينيت) ويفضون اليه باعترافهـم الأخير ، أما أنا فما عدت أذكر خطيئة أو اثما فعلته ، وانمـــا كل ما ذكرته ، اننى على وشك أن أقابل الموت •• فجثوت على ركبتى ، وركع بجانبى سير جى دبلن سفير قبرص ، وأخذ يعترف لى بخطاياه •• وقد وهبته المغفرة بقدر ما أعطانى الله من موهبة الغفران ، ولكنى عندما وقفت بعد ذلك ، لم أتذكر مما قاله شيئا عـلى الاطلاق !

وبدا كأن المماليك قد اعتزموا أن يعدموا جميع الأسرى ، فلقد دفعوهم دفعا وألقوا بهم الى جوف السفينة فوق بعضهم البعض ، وقد اختلطت ــ كما يقــــول جوانفيل ــ رؤوسهم بأقدامهم ، وظلوا طوال الليل على هذه الحال ، فهو يقـــول : « كانت أقدامى فى وجه الكونت بيتر أوف بريتانى ، وكانت أقدامه فى وجهى • » !!

على أنهم فى الصباح أطلقوهم من هذه العلبة المكتظة بأجسادهم ، وأعلنوا أنهم سيعودون فيعاملونهم نفس المعاملة التى كانـــوا

يلاقونها من السلطان ، ولكنهم قرروا أن الملك لن يسمح له بمغادرة مصر الا اذا دفعت الملكة - وكانت لاتزال فى دمياط - مبلغ أربعمائة ألف دينار ، أى حوالى ٢٣٠ ألف جنيه ، وهى المبلغ الباقى من الفدية . وضمانا لذلك ، احتجزوا جميع المرضى الذين كانوا فى دمياط ، وكل المخازن والأسلحة التى تخص الملك !

ويحكى « جوانفيل » قصة ، غاية فى العجب والغرابة ، يزعم أنها حدثت فى اجتماع الأمراء المسلمين ، اذ يقول انهم اقترحوا فى ذلك الاجتماع أن يمنحوا عرش السلطنة المصرية الى الملك لويس ! .. وان هذا الاقتراح لم يحل دون الموافقة عليه الا وثوق هؤلاء الأمراء من أن الملك لن يقبل ذلك العرض، لأنه لن يرضى مطلقا أن يرتد عن دينه ، وانه اذا جعلوه سلطانا عليهم ، فاما أن يرغمهم على اعتناق المسيحية ، واما أن يقتلهم !

قد يكون شىء من هذا أشيع ، ولكن المؤكد أن المسلمين ماكانوا ليرتضوا لحكمهم الا رجلا مسلما . ويقول جوانفيل فى هذا الصدد : « سألنى الملك ذات يوم عما اذا كان من رأيى اذا عرضت عليه مملكة مصر أن يقبلها ، فأجبت بأنه لو قبلها لارتكب حماقة كبرى ، بعد أن رآهم يقتلون مولاهم ! .. وحينئذ قال لى الملك انه فعلا رفضها . »

.. ولكن لم يذكر جوانفيل متى سأله الملك ذلك السؤال ، فقد يكون هذا حدث بعد مرور زمن طويل على انتهاء الحملة . وقد يكون ضعف ذاكرة الملك واختلال حكمه على الحوادث بفعل الزمن هو الذى حدا به الى رواية هذه القصة .. ومهما يكن الأمر ، فلا شك أن هذه القصة هى صورة من أثر الشعور بما كان للملك فى النفوس من تقدير عظيم ، ومن اعجاب شهد به الأصدقاء والأعداء على السواء .. اعجاب بروحه العالية وسلوكه النبيل ، اللذين تبدى بهما وهو واقع فى محنته .

بل قد تكون هذه القصـــــة لونا من ألـــوان التخمـــين أو الاستنتاج الذى توحى به الى الذهن المقارنة الخفية فى النفوس بين الملك الفرنسى الذى كانوا يعتبرونه مع ذلك كافراً ، وبين ذلك السلطان الحقود ، الممتلىء قسوة ، الذى قتلوه فى النهاية !

الملك لويس ونبلاء فرنسا ، بين الحياة والموت !

◆ ومرة أخرى يبدو كأنما انتهت المخاوف عند هذا الحد ، ولكن الخطر كان مع ذلك لايزال موجودا ، فلقد علق المسلمون رضاهم بالصلح على أن يقسم الملك ، بصيغة معينة ، عـــلى الشروط التى انتهوا اليها • وقد أكد له البروفيسور « نيكول أوف آكر » أن « فرسان المسلمين » لن يرتضوا قسما آخر غير الصيغة التى وضعوها له بأنفسهم • فلما سمع الملك تلك الصيغة التى وضعت بواسطة بعض المسيحيين المرتدين ، هالتـــــه بعض عباراتها ، وبادر الى رفضها رفضا باتا ، اذ جاء فيها أن الملك لويس اذا نكث عهده فانه يعتبر قد حلف زورا ، وبالتالى يعتبر ملعونا كمسيحى أنكر الله والمعمودية والخلاص والايمان !

وقد قيل ان الملك حين سمع هذه الصيغة تقرأ عليه ، تميز غيظا وحنقا ، وصاح قائلا انه مستحيل أن يقترف هذه الجريمة ، أو ينطق لسانه بهذا الاثم •• وعنـــدئذ بعث البروفيسور « نيكول » الى الملك يقول له ان الأمراء في أشد حالات الغضب ، وانه يشعر شعورا أكيدا بأنهم مصممون ــ ان لم يقسم الملك ذلك القسم كما وضعوه له ــ أن يقتلوه هو وجميع رعاياه !•• ولكن الملك أصر مع ذلك على الرفض •

وقد حدث أن كان فى معية الملك اذ ذاك بطريرك أورشليم ، وهو شيخ يبلغ الثمانين من العمر ، وكان قد جاء ببراءة من « طوزان شاه » يأمر فيها جنده بتأمين حياة الملك ، ولكن هذا الأمر أصبح لاقيمة له بعد أن قتل الذى أصدره •• ومنذ ذلك اليوم بقى البطريرك أسيرا •• فلما حدثت هذه الأزمة الأخيرة

قام أحد الأمراء واتهمه بأنه هو الذى حرض الملك على الامتناع عن القسم ، ثم اقترح أن يقتل ـ جزاء فعلته ـ أمام عينى الملك ! غير أن الآخرين لم يوافقوا على ذلك ، وان كانوا قد ربطوا جسد البطريرك فى صارية وأوثقوا يديه خلف ظهره وراحوا يشدون عليه فى قسوة ، حتى انبثق الدم منـــه ، وحينئذ صرخ بألم عظيم : « آه ، يامولاى ، يامولاى » .. ثم صمت قليلا ، ورفع عينيه فى ضراعة مناشدا لويس : « احلف ، احلف بلا وجل يامولاى ، وليقع على روحى وزر خطيئتك ، وليعطك الله قـوة لتنجز وعدك . »

ثم يقول جوانفيل فى مرارة : « لا أدرى ان كان الملك قد فاه بالقسم بعد ذلك » ، ولكن كيفما كان الأمر فقد وافق القواد

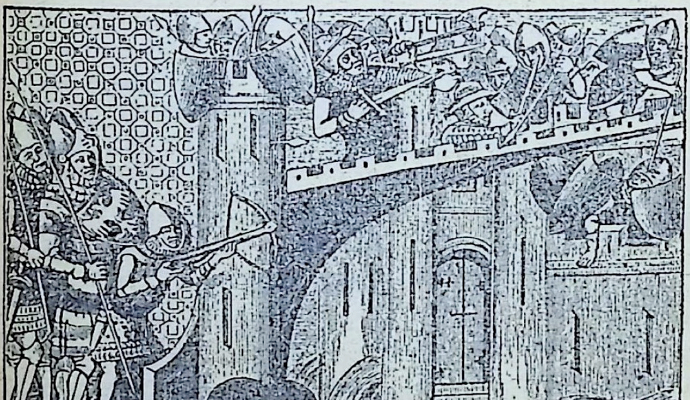

البرج الدائر .. كانت جيـوش الصليبين تستخدمه فى تسلق جدران المدن لغزوها

وأمراء الأسطول على ما أقسم عليه الملك ، وأرسل النبيل « جيوفرى دى سيريجن » الى دمياط أمرا باخلاء المدينة للمسلمين . فلما تم جلاء الفرنسيين عنها ، كان من المتعين بعد ذلك أن يطلق سراح الملك مع الأسرى الآخرين .

وكان من الشروط التى قبلها الملك بمقتضى القسم ، أن يدفع قبل أن يغادر وادى النيل مبلغ مائتى ألف جنيه ، وهو القدر الباقى الذى لم يدفع من الفدية . وضمانا لدفع هذا المبلغ ، احتجز المسلمون جميع المرضى الذين يعالجون فى دمياط ، وكل الأسلحة والمخازن وآلات القتال واللحوم المملحة الموجودة فيها ، واشترطوا ألا تعاد هذه كلها الى الملك الا اذا دفع باقى الفدية !

غير أنه حينما دخل المصريون المدينة ، ووجدوا أنها فى قبضة أيديهم ، نسوا كل عهد قطعوه على أنفسهم ، فراحوا يحطمون كل ما وجدوه من أدوات القتال ، وهدموا المخازن ، وجاءوا بكل مافيها من الأمتعة والمهمات فجعلوا منها أكداسا وأشعلوا فيها النار ، فما خمدت جذوتها ولا خف لهيبها ثلاثة أيام متواليه !

واذ ذاك .. وقد وجد الأمراء أنهم وضعوا أيديهم على دمياط ، بدأوا من جديد يتداولون فيما اذا كان من غير الملائم أن يبادروا بقتل الملك ومن معه ! .. فقام أحد الأمراء يهيب بزملائه : « دعونا نقتلهم جميعا .. فلن يكون ثمة مانخاف منه فى الأربعين سنة القادمة ، طالما كان أطفالهم صغارا ، وهاهى ذى دمياط فى أيدينا » .

فوافق بعضهم على هذه الفكرة ، الا أن بعضهم الآخر اعترض قائلا ان هذا جور وظلم واثم .. وقد ظلوا يتناقشون ويتشاورون ، دون أن يتفقوا على رأى ، حتى آذنت الشمس بالمغيب . ولكن فى نهاية الأمر تغلب عليهم تأثير السلطانة ورؤساء الجيش ، لكيلا يقترفوا هذا الأمر ، ويصموا أنفسهم بالغدر ونكث العهود . هذا ولو أن جمال الدين يقرر أنه لم يكن تأثير هؤلاء هو الذى صدهم عن قتل الأسرى ، وانما الذى

صدهم هو سحر الفدية الفادحة التى وعد الملك بدفعها .

.. ومن ثم جاءوا بالملك مخفورا بقوة كبيرة من الجنـــود المسلحين الى دمياط ، أو بالحرى الى ضفة النهر المجاورة لها ، وهنالك تحرر نهائيا من أسر أعدائه .. بأشد الوسائل غرابة وطرافة !

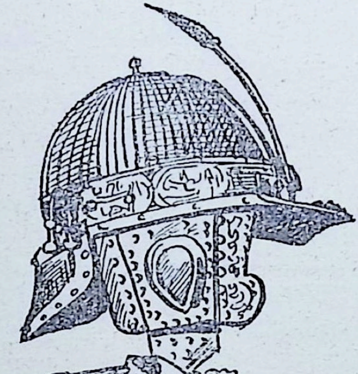

خوذة جندى صليبى

الفصل السادس

انقاذ الملك !

◆ .. فقد حدث أن كانت سفينة تابعة لمدينة (جنوا) راسية بقرب الشاطىء ، تجاه النقطة التى مر بها الملك ، ولم يكن يبدو غير رجل واحد على ظهرها ، ولكنه فى اللحظة التى وقع فيها بصره على الملك ، صفر بفمه نغمة خاصة .. وفى الحال وثب الى الشاطىء ثمانون من حملة الأقواس وقد تسلحوا تسليحا تاما ، وحنوا أقواسهم ، وصوبوا سهامهم ، فما رآهم المسلمون حتى تملكهم خوف شديد ، وولوا الأدبار مشتتين فى كل جانب ، تاركين الملك وحده .. فبأسرع من لمح البصر ، ألقى لوح خشبى على ضفة النهر ، وعبره الملك الى السفينة ، ثم تبعه شقيقه ، وتشارلس أوف أنجو ، وسير جينز وجوانفيل ، وبعض الآخرين .

وهكذا أصبح الملك فى أمان .. غير أن شقيقه الكونت « دى بواتييه » كان لا يزال فى يد العدو ، وكان الملك متشوقا أن يدفع الفدية فى سبيل أن يطلقه .

وفعلا أرسل مبلغ الفدية من لدن الملكة ، التى غادرت دمياط قبل الجلاء عنها ، وقد استغرق دفع هذا المبلغ سحابة يومين كاملين . وكان تقديره بالوزنات ، وكل وزنة كانت تبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب (أى حوالى ٥٧٥٠ جنيها) . وفى مساء اليوم التالى وجد أتباع الملك انه مازال باقيا عليهم ثلاثون ألف قطعة ذهبية ناقصة من مبلغ الفدية ، فنصح جوانفيل للملك بأن يقترض هذا المبلغ من فرسان المعبد ، ولكن الأب دى تريكون ، رئيس هؤلاء الفرسان ، اعترض على ذلك مؤنبا

احد حملة الأقواس فى جيش لويس التاسع

جوانفيل لابدائه مثل هذا الاقتراح ، وقد هدد بانه اذا أخذ الملك هذا المبلغ منهم بالقوة ، فسوف يأخذون لأنفسهم تعويضا من الأملاك التى للملك .. فسخط جوانفيل لهذا التهديد ، وطلب من الملك أن يأذن له بالذهاب الى سفن الفرسان واغتصاب المبلغ المطلوب • وعند وصوله الى هنالك ، وجد خزانة مغلقة على سطح احدى السفن ، ولما رفضوا أن يفتحوها له ، تناول مقلاعا وكسرها بالقوة ، فانخلع القفل وأخذ مقدار النقود التى بقي عليهم دفعها ، وعاد به الى الملك ، فسر سرورا

عظيما ، ودفعت الفدية الى آخر درهم ، واطلق سراح الكونت « دى بواتييه » •

١٢ ألف فرنسى فقط ينجون من الموت

◆ وفيما كان الأمراء يتفاوضون مع الملك ، سأله « حسام الدين » عن عدد جنوده حينما نزل الى دمياط ، فأجابه الملك بأنهم كانوا تسعة آلاف وخمسمائة فارس ، ومائة وثلاثين ألفا من المشاة ، غير الخدم والعمال •

ولاشك ان هذا التعداد مبالغ فيه جدا ، فاما أن يكون الملك قد أراد تضـــخيم قوته ، وأما أن الشرقيين هولوا فى عدد أعدائهم ، ليزيدوا من قيمة انتصارهم !

وعلى أى حال ، فان من أفراد تلك الحملة الصليبية الكبيرة التى نزلت الى أرض مصر ، لم يعد الى فرنسا غير عدد قليل :•

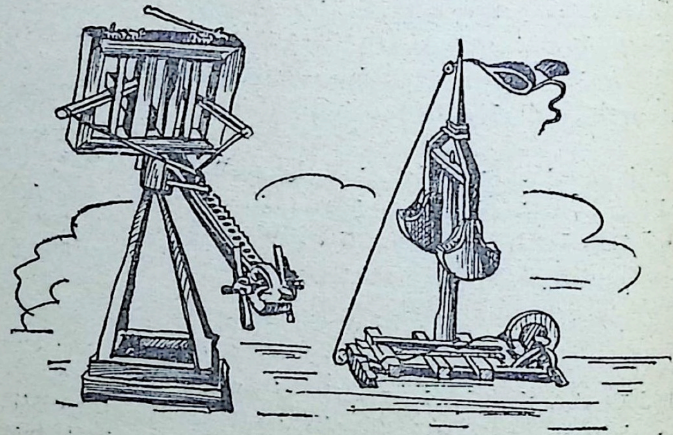

مقلاع صليبى يقذف الأحجار ، ومدفع منجنيق يقذف السهام

فان الأسرى الذين أطلق سراحهم لم يكونوا - كما قيل لنا - يزيدون على اثنى عشر ألف رجل ، وعشر نسـاء .. وحتى هؤلاء لم يطلق سراحهم كلهم سريعا ، بل ان بعضهم ظل راسفا فى أغلال الأسر وقتا طويلا ، ولابد كذلك أن عددا كبيرا من الجنود الفرنسيين قد ارتدوا عن دينهم ، وظلوا مقيمين بأرض مصر بصفة نهائية

تلك كانت العاقبة التعيسة لتلك الحمـلة الشـهيرة . وبانتهائها كانت الروح الصليبية قد اخذت تضمحل وتكابد طور النزع الأخير ، ولاشك أن الحملة كانت من العوامل التى عجلت بموتها !

ذلك أن المملكة اللاتينية فى الأرض المقدسة مالبثت بعد ذلك بفترة وجيزة أن تقلص ظلهـا ، ثم زالت . وكان من أهم أسباب زوالها ، أولئك التتار الذين شنوا غارات عنيفـة على بلاد الشرق الأوسط ، فاجتاحوا سوريا ومصر ، مما كان له أبلغ الأثر فى اضعاف الحكام المسلمين . فلما قام المماليك الأبطال بطرد الغزاة الأوروبيين من بلادهم ، كان فى ذلك الضربة القاضية على حكم اللاتين ، وأصبح زوال سلطتهم أمرا محتوما !

وفعلا ، ما مرت احدى وأربعون سنة من نزوح لويس التاسع عن مصر ، حتى قام السـلطان « الأشرف خليل » - الذى مايزال ضريحه موجودا بالقاهرة - وقضى على البقية الباقية من سلطة اللاتين فى بيت المقدس .

مصر بعد طرد الغزاة

(مهرجانات النصر .. ومملكة شجرة الدر)

◆ **أقيمت** الأفراح فى القاهرة وفى كل أنحـاء القطر ، لذلك النصر الباهر المجيد الذى أحرزته جيوش المسلمين .. فما أن عاد الجنود الى القاهرة حتى استقبلهم الشعب استقبال

الفاتحين ، وزين رؤوسهم بأكاليل الغار ، ورنم لهم أناشـيد النصر وأهازيج الحبور ، وغمرت السلطانة ضباطهم بالعطايا والهدايا والهبات ، وأغدقت على صغارهم أسمى الانعامات ، وأسبغت على الجميع أفخم الحلل ، وقلدت الأمير « أيبك » قيادة الجيش بدلا من فارس الدين أقطاى ٠٠ وكان كل ماجرى من التصرفات بعد ذلك باسم السلطانة ، التى نودى بها ملكة على مصر ، وأصبحت الدعوات تقرن باسـمها فى المساجد ، وتفردت بكل مظاهر السلطان !

وأصبحت النقود تصك باسم شـجرة الدر ، ولا زالت توجد فى المتحف البريطانى قطعة غاية فى الجمال ، ضربت أثناء حكمها القصير فى مضرب القـاهرة ، وتحمل تاريخ ٦٤٨ هجرية ، وعلى وجهها اسم الخليفة المستعصم ، الذى كان آخر خلفاء العباسيين فى بغداد ، والذى قتله قتلة شنيعة القائد « هولا جو خان » حفيد جنكيزخان وزعيم التتار الذين اجتاحوا بغداد فى عام ١٢٥٨ ٠

وعلى ظهـر هذه العملة عبـارة تستلفت النظر ، وهى : « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل ٠ » (ويظهر أن السلطانة قد اتخذت لنفسها اللقب الأول لتشير الى ولائها واخلاصها للخليفة المستعصم ، وأما اللقب الثانى فكناية عن اسم زوجها الأخير ، وأما خليل فكان ابنها الأصغر من نجم الدين ٠) ٠ وفى أعلى هذه العبـارة وأسفلها كتبت عبارة « أمير المؤمنين »

أما وجه قطعة العملة فكانت عليه هذه العبارة : « الامام المستعصم بالله ، أبو أحمد عبد الله أمير المؤمنين » ٠ وعلى دائرة الوجه هذه العبارة : « باسم الله الرحمن الرحيم ، ضرب هذا الدينار بالقاهرة سنة ثمان وأربعين وستمائة » ٠٠ وأما دائرة الظهر فمكتوب عليها : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلـه » ٠ وكانت

تضاف أحيانا الى العملة هذه العبارة : « ولو كره المشركون » ، فهى وان لم توجد على هذه القطعة بالذات ، الا انها كانت تكتب على العملة الاسلامية القديمة ، وقد وجدت على نقود مضروبة فى القرن الأول للهجرة ٠

الزوج الذى اختارته شجرة الدر ٠٠ ستارا !

◆ غير أن كون الملكة امرأة ، كان فى غير صالحها ، اذ إنه حينما أعلن الخليفة رسميا بتبوئها العرش ، احتدم غضبا وحنقا واستياء من أن امرأة تجلس على عرش مصر ٠٠ وكتب الى المماليك يوبخهم بقوله : « **اذا لم يكن بينكم رجل يصلح لأن يكون سلطانا لكم ، فقولوا لى وأنا أبعث اليكم رجلا من عندى !** » ٠ ثم قال لهم : « **ألا تعلمون أن نبينا الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « ويل للأمة التى تحكمها امرأة »** ٠٠ ؟

وما كان فى مقدور شجرة الدر أن تقاوم اعتراضا قويا مرهوبا كاعتراض الخليفة ، فبعد أن حكمت ثلاثة أشهر ، تنازلت عن العرش للأمير أيبك ٠٠ ذلك أنها لم تكن لتهتم بالمظاهر ، وانما كان جل رغبتها أن تظل القوة الفعلية فى يدها !

وأما « عز الدين أيبك » فكان أحد الأرقاء الأتراك ، وقد تدرج فى المناصب حتى بلغ رتبة أمير فى جيش المماليك البحريين ، وأصبح « جانكيزا » ، أى نائبا للسلطان نجم الدين ٠ وكانت له سمعة حميدة ، لما اتصف به من قدرة وشهامة وغيرة دينية وبصيرة نافذة ، فانتخب باجماع الآراء سلطانا لمصر ٠٠ الا أن حكمه أظهره على جليته ، طاغيا ، مستبدا ، سلابا ، نهابا ، سفاكا لدماء الأبرياء ، فظا غليظ القلب ، لا لشىء الا ليجعل نفسه مخوفا مرهوب الجانب من رعاياه ! ٠٠ **وبعد فترة وجيزة من توليه الحكم باسم المعز أيبك ، عقد زواجه على شجرة الدر ، فكانت – مع أنها نزلت**

عن العرش – هى الحاكم الحقيقى لمصر ! ·· ولابد ان هذه المرأة ، التى استطاعت أن تمد سلطانها وتخضع لشوكتها جنودا شرسين متمردين ، مثل المماليك ، كانت على جانب عظيم نادر من المقدرة والذكاء وقوة الشكيمة ومضاء العزيمة · وقد صرفت بنجاح عظيم شئون مصر الخارجية · ولايخفى المؤرخون العرب اعجابهم بشجاعتها ومهارتها اللذين أظهرتهما فى صد الغزاة الفاتحين ، واحباط دسائس مسلمى الشام المحالفين لفرنجة فلسطين ضد مصر ·

غير أن الظروف التى ولى السلطان فيها العرش ، كانت تبعث على الأسى والاشفاق ، فقد كانت مصر مهددة بغزو قبائل التتار ، أولئك الهمج المتوحشين الذين اجتاحوا فى الفترة الواقعة بين عامى ١٢٠٦ و ١٢٢٧ معظم الأراضى الواسعة فى شمال الصين ، وكان على رأسهم زعيمهم الشهير جنكيز خان ، وقد نفذ بهم الى قلب آسيا ، فأخضع بمساعدة المهندسين الصينيين كل مدائنها ، وانقض فرسانه القساة الجبابرة على الممالك الاسلامية فطووها تحت سنابك خيلهم ، الى حدود سوريا ·· حتى خضع لسطوته – فى خلال الثمانية والستين عاما من حكمه وحكم خلفائه الأربعة – الجانب الشرقى كله تقريبا من آسيا ، وقسم شاسع من أوروبا ! ·· وفى أثناء كراته وهو يلتهم المدن ، كان يبيد سكانها عن بكرة أبيهم ، ويتركها رمالا وأطلالا · فلما اعتلى عز الدين أيبك عرش مصر ، كانت جيوش المغول تحت قيادة « هولاجو خان » – حفيد جنكيز خان – تتدفق كبركان متفجر نحو سوريا · وفى عام ١٢٥٨ حطموا أسوار بغداد ، وحرثوها حرثا ، ومات المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين تحت هراوات هؤلاء الوحوش !

فأينما حلت قبائل المغول ، كانت تتفتح أفواه القبور فتثوى فيها مدنية الأمم ! ·· فما كان فى رؤوسهم غير فكرة واحدة وغرض واحد ، هو سفك الدماء ولا شيء غير سفك الدماء ··

جنكيز خان ٠٠ زعيم التتار المشهور

لا لغاية سوى اطفاء شهوتهم الوحشـــية من فيض الشرايين البشرية المتفجرة ، واضرام النار فى معالم العمران ، واشباب السعير فى أطلال المدن ٠٠ وحين أغاروا - كأسراب الجراد الفاتكة - على بغداد والموصل ودمشق ، تلك المدن الجميلة الوادعة ، أطبقوا عليها اطباق الضوارى ، وانهالوا على مساكنها وسكانها هدما وتخريبا ، وذبحا وتنكيلا ، فهوت تحت اقدامهم دكاما وأكواما ، وتركوها رمادا وترابا يبابا !

٠٠ وماصمد أمام ذلك السيل الجارف المنهمر من ناحية الشرق ،

غير اولئك الأرقاء البواسل ، الذين يتكون منهم جيش السلطان « عز الدين أيبك » ، فأنقذوا القاهرة من الوقوع فى براثن المغيرين ، وانتشلوها من مثل ذاك المصير المروع .

حفيد صلاح الدين يطمع فى غزو مصر !

◆ والى جانب هذا الخطر المحدق من ناحية المغول ، كانت ثمة شائعات عن فتوحات أخرى يقوم بها الفرنجة ، فكان من المتوقع أن تتجه أنظارهم الى مصر ، وهى دائما هدف الفاتحين ، الا أن الخطر الأعظم كان جاثما للمصريين قبل كل شىء وراء قفار سينا ، من جانب مسلمى الشام ، المتحالفين مع فرنجة فلسطين .. ذلك أن السلطان الناصر صلاح الدين ، وهو حفيد صلاح الدين الكبير ، كان قد ورث عن أبيه احدى ولايات الشام ، ثم جار على طابية حمص فاغتصبها ، وبعد ذلك انتهز فرصة غزو لويس التاسع لمصر ، وانشغال سلطانها بمحاربته . فاستولى على دمشق فى سنة ١٢٥٠ . وما لبث أن تطلع الى السيادة على كل بلاد سوريا ، حتى يمكنه بذلك أن يسيطر على امبراطورية مصر كلها . فلكى يقضى أمراء مصر على الخطر من هذه الناحية ، أو على الأقل يخففوا من حدته ، أرادوا أن يعززوا قوة السلطان فى ذلك الظرف الدقيق ، فكونوا مؤتمرا فيما بينهم وقرروا بالاجماع أن يشركوا معه فى العرش طفلا لم يبلغ السادسة من عمره ، وهو ملك الأشراف مظفر أحد أمراء الأسرة الأيوبية . « وبذلك ضمنوا التفاف الأمراء جميعا حول العرش وطاعتهم للجالس عليه .. »

ومن ثم أصبحت جميع الأوامر والنشرات الرسمية تصدر وتختم بالاسم المشترك للمعز أيبك ، والأشرف .. ولكن الواقع ـ والطبيعى ـ ان الطفل لم يكن له فى ادارة شئون الدولة غير اسم أجوف !

وبعد ذلك أعدوا جيشنا لمقاتلة السوريين بقيادة « أقطاى » ؛ وظلوا فى حربهم معهم يتأرجحون زمنا طويلا بين الهزيمة والنصر ، حتى تمكنوا فى النهاية من طرد الغزاة من امبراطوريتهم ، وأمنت مصر بذلك شرا وبيلا ٠

الفصل السابع

المماليك يتآمرون على حياة السلطان !

● غير أن المماليك البحريين عادوا من ميدان القتال فى سوريا منتفخى الأوداج بزهو النصر ، وممتلئين بكبريائه ، فما لبثوا أن عاثوا فى البلاد نكرا وفحشا وفسادا .. وراحوا يقترفون كل موبقة من الشغب والفوضى والاجرام : فسلبوا ونهبوا وقتلوا وخطفوا النساء ! .. وبالجملة أتوا كل صنوف البغى والاستبداد . **وعبثا حاول السلطان - المعز أيبك - أن يكبح جماح تهجمهم وتهتكهم .. فنقلهم من ثكناتهم بالروضة ، وعزل الطفل الذى أجبر على مشاركته عرشه ، فما كان منهم الا أن عولوا على الانتقام ، وراحوا يتآمرون على حياته ، وقد بدأ رئيسهم « أقطاى » يغتصب منه السلطة شيئا فشيئا ، ويظهر دونه بمظهر الحاكم المطلق الذى لارقيب عليه ولا سيد !** ثم تزوج ابنة أمير حماه .. وعند وصولها الى مصر استقبلها استقبالا رسميا يفوق كل وصف ، وأدخلها المدينة فى محفل رائع وأبهة باذخة ، كأنها ملكة تتهيأ لارتقاء العرش . وتمادى أقطاى فى تبجحه فطلب من المعز أن يأذن له فى أن يعيش مع عروسه فى قلعة القاهرة ، وهى مقر السلاطين ، ففاضت كأس « المعز » ، واستبد به الغضب والحنق ، حتى تربص من ذلك الوقت ليقتنص علة يقتل بها أقطاى !

وقد فقد المعز كل سلطة على البحريين ، بل فقد كل هيبة واحترام فى نفوسهم ، فكانوا يستخفون بأوامره ، ويهزأون بأعماله ، فلو أنه أنعم بمنحة على شخص لا يمت اليهم ، منعوه بكل طريقة من انجاز وعده بشأن هذه المنحة ، أما لو

كان أحد البحريين هو المنعم عليه ، فان الرجل لم يكن ليخفق أبدا فى انجاز ثلاثة أمثال ماوعد به ٠٠ !!

وكان « أقطاى » فى تلك الأثناء يجتذب اليه بالتدريج قلوب الجند ، ويستأثر بولائهم ، فأصبح ملتقاهم ومحلهم المختار فى بيته ٠٠ ولم يعد يدبر أمر يعتزمونه بدون مشورته ، ولا ترسل مكاتبة أو تفض رسالة الا باذنه ! ٠٠ وقد ظاهره أمراء سوريا والعراق ، فتفاقم أمره وخطره ، وبدأ يتطلع صراحة الى عرش السلطنة ، فما كان يظهر أمام الناس الا وحوله حرس قوى من الرجال المسلحين ، المتأهبين لتنفيذ أى أمر يصدره ٠ ومن ثم اشتد ساعد البحريين وازداد نفوذهم ، ففاقت جرائتهم ووقاحتهم كل حد ، وراحوا يستولون بالقوة على كل شئ ثمين يعجبهم ، ويخطفون النساء من أزواجهن ، والأطفال من أمهاتهم ، ويدخلون الى الحمامات العامة ، ويحملون من فيها من الفتيات والعذارى ، دون أن يجرؤ أحد على منعهم أو مقاومتهم !

وأخيرا عزم السلطان على تحرير نفسه من هذه الطغمة الباغية ، وتلك المنافسة الخطيرة ، فاستدعى « أقطاى » الى القلعة بحجة التداول معه فى بعض المسائل العامة ٠٠ فلم تساور هذا الأخير أية ريبة أو شك ، واتخذ طريقه نحو القلعة وهنالك مر من بوابتها ، واتجه نحو بهو « الاعمدة » — وهو الذى كانت تعقد فيه الاجتماعات الكبرى — واذ توسط الدهليز المؤدى اليه ، أغلقت الأبواب من أمامه ومن خلفه ، وبرز له ثلاثة رجال فانقضوا عليه ، ومزقوه بسيوفهم ، فسقط وسط بركة من الدماء !

فلما وصلت الى المدينة أنباء مقتل أقطاى ، هرع من أشياعه مايزيد على سبعمائة رجل الى القلعة ، وكانوا يمنون أنفسهم بأنه لم يقتل حقيقة ، بل كل مافى الأمر انه معتقل ، وانهم سوف يمكنهم أن يحصلوا من المعز بسهولة على أمر باطلاق

سراحه . ولكن رأسه ألقى اليهم من أعلى الأسوار ، فتملكهم الرعب والدهشة ، وهرولوا فارين من المدينة فى اضطراب وفزع ، بعد ان أشعلوا النار فى جانب منها ، لكى يخفوا أمر فرارهم . وقد اعتقل السلطان كثيرين من زملائهم الذين بقوا فى القاهرة ، وقتل بعضهم ، وسجن البعض الآخر ، وصادر أملاكهم ، وقبض على زوجاتهم وأولادهم ، وهدد بالموت كل من يساعد أو يخفى أحدا من البحريين .. واذ ذاك ، ولأول مرة ، أصبح المعز هو السيد فى مملكته !

الاضطهاد يلاحق الهاربين من مصر !

◆ وقد احتمى بعض الفارين بسلطان دمشق ، وعاش

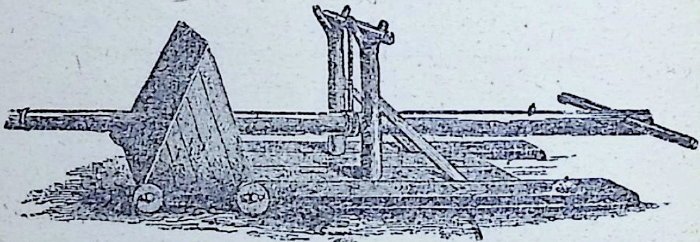

كان هذا « الخازوق » يستخدم فى دك اسوار المدن فى الحروب الصليبية

آخرون « قطاع طرق » فى فلسطين ، ينهبون أراضى الفرنجة وأملاك المسلمين ، والتجأ منهم ألف وخمسمائة الى سلطان الروم ـ وهو ليس امبراطور البيزنطيين ، بل هو علاء الدين ، سلطان السلاجقة فى قونيا ـ ولكن حيثما ذهب أولئك اللاجئون ، كانت تتبعهم خطابات التحذير والانذار من المعز ، وقد كتب الى سلطان الروم أن يحترس من البحريين لأنهم رجال مجرمون ، وما كانوا قط مخلصين لعهدهم ولا مطيعين

لسيدهم ·· « فلو أنهم قطعوا على أنفسهم عهدا لنكثوه ، ولو أنك أوليتهم ثقة لقابلوك بالخيانة والغدر ، فكن منهم على حذر ، وانى لأخاف أن يقترفوا جرما فى حقك ·· فالحق أقول لك انهم قوم ملؤهم الرياء والكذب والخداع والمكر ! »

وقد اضطرب سلطان الروم حينما بلغه ذلك أيما اضطراب ، وأرسل فى طلب اللاجئين ، وسألهم عما يشكون من سيدهم ·· فتقدم أحدهم وقال : « يامولاى من هو فى رأيك سيدنا ؟ » ، فأجاب السلطان : « أنه حاكم مصر ، الملك المعز » · فقال ذاك : « ليحفظ الله حياة مولانا السلطان ·· لو أن الملك المعز كتب اليك أنه سيدنا فهو مخطىء ، لأنه لم يكن الا زميلا لنا ، ونحن الذين منحناه السلطان علينا بالرغم من أنه كان بيننا رجال أكثر منه خبرة وحنكة ، وأعلى مرتبة ، وأدرى بفنون القتال وأولى بالملك ·· وأما هو ، فجزاء لنا على صنيعنا سجن ، وقتل ، وأغرق معظم رجالنا ! ·· ولكى ننجو من غضبه ونقمته فررنا مشتتين فى بقاع الارض · وها نحن قد أتينا لنلتمس الحماية والعون فى ظل سموكم ، ونحن رهن أمركم » · فسر السلطان من ذلك الجواب ، وأبقاهم فى خدمته !

وأما البحريون الذين ظلوا فى مصر ، مجردين من زعمائهم ، فلم يكن فى مقدورهم الحاق أى أذى بالمعز ، طالماكانوا مضطربين مبلبلين ، ولكن هلاكه جاء على يد أقرب الناس اليه !

شجرة الدر تقتل زوجها !

◆ **احتفظت** شجرة الدر بقوتها قرابة أربع سنوات ، كانت خلالها تحكم مصر بمفردها ، وتتمتع فى ادارتها بسلطة مطلقة ، دون أن تسمح لزوجها بأى نصيب فى تدبير الأمور ! ·· غير أن المعز تولاه الضجر فى النهاية من بقائه هكذا سلطانا بالاسم ، ومن خضوعه المستمر لرغبات امرأة غيور

نير مستبدة ، فثارت نفسه ، ووطد العزم على أن يلقى جانبا نير العبودية !

وكانت شجرة الدر دائمة القسوة عليه ، ودائبة على لومه وتعييره ، والادلال عليه بأنها هى التى رفعته الى العرش ٠٠ وقد أجبرته بغيرتها على تطليق زوجته الاولى أم ولده نور الدين ، بل لقد بلغ بها الأمر أن منعته من أن يتكلم مع ولده ، أو حتى يراه !

واذ ذاك نشأ مقت مرير بين الزوجين ، وزاد ناره اشتعالا تلك الخزعبلات الخرافية التى كان يزاولها كلاهما ويؤمن بفعلها وقوتها : فقد كان للسلطان منجم دجال أسر اليه أنه يقرأ فى صفحة طالعه أنه سوف يقتل بتدبير امرأة ! ٠٠ وتسلط الرجل على تفكير الملك حتى أثار مخاوفه وجسم له ذلك المصير الرهيب الذى ينتظره ٠ وبطبيعة الحال لم يكن غير السلطانة فى تقدير الملك مصدرا أعظم للخطر ، فاجتهد المعز فى الأخذ بأسباب الحذر ، وانتقل من محل اقامته معها فى القلعة الى حيث أقام فى حى آخر من أحياء القاهرة ٠ ثم تعلل بأن السلطانة لم تنجب أولادا فأرسل يطلب يد ابنة سلطان (حماه) ٠ ولكن يظهر أن المفاوضات فى هذا السبيل لم تسفر عن شىء ، الا أنه حين وصلت أنباء هذه الخطبة الى علم السلطانة ، أكلتها الغيرة واستبد بها الغضب ٠٠ ولكى ترد للسلطان كيده بعثت رسولا الى الملك ناصر يوسف ، « أمير » حماه ، يخطره بأنها عزمت على أن تطلق من زوجها المعز ، لأنها فكرت فى الزواج منه هو ، وأنها سترفعه الى عرش مصر ! ٠٠ ولكن ناصر ، وقد ارتاب فى الأمر وخشى الغدر ، لم يجب على رسالتها ٠

وتسربت الشائعات عن المفاوضات الدائرة ٠٠ فكتب سلطان حماه « بدر الدين لولو » حما المعز المستقبل ، كتابا اليه يحذره فيه ليحترس من شجرة الدر ، اذ أن ثمة اتفاقا سريا بينها وبين أمير حماه ٠٠ فصمم السلطان على ابعادها

عن القلعة ، واعتقالها ، بل وقتلها ! ٠٠ ولكى يحول دون اية مقاومة ممكنة أو معارضة فى زواجه ، قبض على عدد كبير من المماليك البحريين الباقين فى القاهرة ، لأنهم كانوا دائما مشايعين للسلطانة ومتعصبين لصالحها ٠

وأرسل المعتقلون الى القلعة ٠٠ وبينما كانوا يدخلونهم الى الفناء الكبير ، تعمد بعضهم أن يقترب من احدى المشربيات ـ وكانوا يعلمون أنها المكان المحبب لجلوس شجرة الدر ـ وتقدم أحدهم فخاطبها فى احترام عميق ـ باللغة التركية ـ قائلا : « هو عبدك ايبيكين الذى يتكلم ، فباسم الخالق أى مولاتى ، نحن لانعلم أى ذنب جنينا ، ولا بأى جريرة سجنا ، الا أن يكون

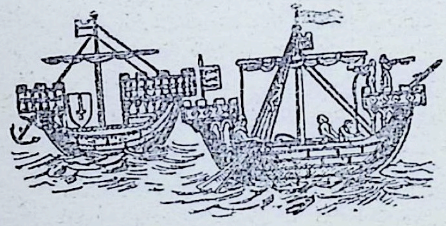

سفينتان من سفن حملة لويس التاسع

ذلك لاننا ـ حين طلب المعز أيبك يد اميرة الموصل ـ لم نرض بهذا من اجل خاطرك ، بل رفضناه واستهجناه ، لانك أنت أصل نعمتنا ، ونحن ندين بكل شىء لكرمك وجودك وفضل زوجك نجم الدين ٠٠ لذلك يكرهنا المعز ، وينقم علينا ، ويسومنا العذاب كما ترين ! » ٠٠ فلوحت شجرة الدر بمنديلها خلال المشربية ، ليعلم أنها سمعت كلامه ٠

وحينما أوصدوا أبواب السجن على أيبيكين وزملائه ، قال لهم : « اذا كان المعز قد سجننا ، فاننا سنقتله ٠٠ !! »

ورأت السلطانة أنه ليس ثمة الا اجراء سريع ينفـذها ،

فأرسلت الى صفى الدين ، أمين خزانة السلطان ، وسألته المشورة ، ووعدته بمنصب الوزارة لو أنه ساعدها . ولكنه حاول بحرارة واخلاص أن يثنيها عن عزمها . ولابد أنها لم تفض اليه بكل تدبيرها ، والا لكان قد بادر بتحذير السلطان مما أعدته له !

فلما يئست السلطانة من مساعدة صفى الدين ، استدعت أحد المماليك ، وهو الخصى محسن صالحى ، وبعد أن خدرت فكره وضميره بالوعود الخلابة ، رضى أن ينفذ لها تدبيرها .

ويالها من مكيدة غادرة بين زوج وزوجة ، تسابقا فى الخديعة .. لكن المرأة هى التى انتصرت فى السباق ! .. فكمثل الأفعى الملساء لانت شجرة الدر ، وبعثت الى المعز رسالة رقيقة تناشده فيها أن يدعها تراه ، وضربت له موعدا !

وتداعت عزيمة الرجل أمام اغراء حواء ، فخدعته الكلمات المعسولة .. وكان يلعب البولو مع بعض رجال حاشيته ، فلما اكفهر وجه الشمس عند الغروب ، امتطى صهوة جواده ، وتهادى به الهوينى متجها الى القلعة ، وعلى محياه أمارات النشوة والسرور .. أفليس ذاهبا للقاء الحبيب .. ؟

وهنالك دلف الى الطريق المظلم الذى يمتد صاعدا بين الصخور ، من الرملية الى القلعة .. ذلك الطريق الرهيب الذى شهد - بعد ذلك بخمسمائة وأربع وخمسين سنة - مذبحة مريعة ، هلكت فيها فصيلة حديثة من المماليك ، بتدبير محمد على . وكانت المدينة فى أسفل المرتفع نائمة فى هدأة الليل وغارقة فى سكون عميق ، وقد أوى الناس بعد صلاة العشاء الى بيوتهم ، وأخلدوا الى الراحة والهدوء .

وكان المدخل من الرملية هو باب العزب ، وهو مصراعان ضخمان من الخشب الثقيل المزدوج السمك ، والمصفح بكتل الحديد ، لا تربطهما بالجدران مفصلات كالابواب الحديثة ، وانما ترتكزان على أسياخ رفيعة من الحديد مثبتة فى صارية متينة

من البلوط ، وتدار على مدار تجويفين فى أعلى وفى أسفل ، محفورين فى كتلتين من الجرانيت .. فما ولج السلطان حتى تحرك فجأة عدان المصراعان الهائلان ، وأغلق الباب من خلفه .. فوقع الشقى فى الفخ !

وظل سائرا بجواده - وقد ادلهم ظلام الليل - فى ذلك الطريق المنحدر ، حتى بلغ القلعة .. وهنالك انقض عليه سفاحون أربعة .. فانتزعوا روحه !!

ويضفى مؤرخو العرب على تلك الصورة المروعة من التفاصيل مايزيدها بشاعة ، فيروون أن شجرة الدر كانت متوارية خلف الحمام ، تتصنت الى مايحدث .. فسمعت زوجها وهو فى أيدى أولئك الوحوش يصرخ بألم عظيم ، ويستنجد بها فى ضراعة تفتت القلوب ، ويناشد اسمها بأعذب الكلمات ، فطغى على قلبها التأثر ، واندفعت الى الداخل صائحة فى القتلة أن يكفوا عن زوجها أيديهم ! .. ولكن محسن جوجرى ، رئيسهم ، أجاب فى خشونة أن قد قضى الأمر .. فانهم اذا تركوه الآن ، فهو لن يتركهم ، ولن يتركها هى أيضا !

وذبحوه أمامها ، وعيناه المحبتان الضارعتان عالقتان بعينيها .. وانتهى كل شىء !

مقتل شجرة الدر !

◆ أرسلت الاوامر - كأنما صدرت من السلطان - الى نائبه سيف الدين مرزوق ، ليحضر حالا الى القلعة . فلما دخل الى القصر ، رأى السلطانة جالسة ، وأمامها جثة زوجها ! .. فانقض على قلبه رعب هائل ، ولما أخبرته بما حدث وسألته المشورة ، أجاب فى حيرة بأنه « لا يعرف ماذا يقول ، وأنها أوقعت نفسها فى مخاطرة مخيفة ، لايمكن أن ينجيها من عاقبتها شىء ! »

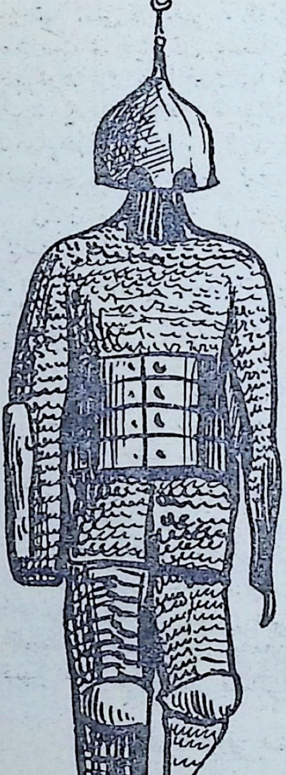
لباس القتال الذى كان يرتديه المماليك فى حروبهم

وبذلت المساعي لاغراء أحد الامراء بانقاذ الموقف ، ولكن بلا جدوى .. وأخيرا بعثت شجرة الدر بأصبع السلطان ، وما زال فيه خاتم الملك ، الى عز الدين حلبى ، مع رسالة تقول له فيها: « انهض . وارتق عرش السلطنة .. ولكنه لم يشأ المجازفة بولوج هذه المخاطرة !

وعندما انبلج الفجر ، وصلت أنباء موت السلطان الى المدينة ، فعم الفزع والاضطراب ، وتبلبلت خواطر الناس ارتياعا مما عساه أن يحدث بعد ذلك ، ونزل رسول من القلعة ليستدعى النائحات لكى يبكين على المعز .. « الذى مات فجأة أثناء الليل » .. !!

ولكن لم تنطل هذه الفرية على أحد ، وأسرع جمهور غفير من المواطنين والجنود نحو القلعة ، واعترضوا سبيل كل من خرج منها ، وشقوا طريقهم الى القصر ، وكان على رأسهم الأمير عالم الدين سانجار ، وهو أقوى ضباط البحريين ، فقبضوا على العبيد والجوارى ، وأخذوا فى تعذيبهم حتى اغتصبوا من أفواههم الاعتراف بالحقيقة !

ولكن السلطانة برهنت مرة أخرى على جبروت نفسها ، وعلى روحها التى لا تقهر ، فانها حين رأت أن كل شيء قد ضاع ، سارعت - قبل أن يمسكوها هي الأخرى - الى الكنوز المثقلة بجواهرها ولآلئها فدفنتها في جـوف الأرض ، حتى لا تصل اليها يد الأعداء .. وكان عبيد المعز يبحثون عنها اذ ذاك ليقتلوها شر قتلة ، لولا أن البحريين - لكى ينقـذوها من انتقامهم - أخفوها فى أحد أبراج القلعة !

وكان من الممكن أن تنجو من الموت ، لأن خدماتها للدولة كانت لا تقدر ، ولا تنسى ، ولأن البحريين كانوا يمقتون المعز ، وكان بعضهم بلا شك شريكا فى اغتياله .. ولكن شجرة الدر جلبت على نفسها كراهية امرأة أوردتها مورد الهلاك ، وتلك هى الزوجة الاولى للمعز ، التى أجبرته على تطليقها ، وتلك عند النساء جريمة ، هيهات فيها صفح أو مغفرة !!

وفى الحال ، انتخب الابن الأصغر للمعز سلطانا ، مع أنه لم يبلغ الخامسة عشرة . وأعيدت أمه ، وهى الزوجة الأولى للمعز ، الى القلعة بين مظاهر التعزيز والاجـلال . وقد أحنى الناس جميعا رؤوسهم أمام والدة السلطان . فلما استقرت فى القصر ، أمرت باحضار المرأة التعسة - شـجرة الدر - فى حضرتها ، وأهانتها ، وضربتها ، ثم سلمتها للجوارى اللاتى أخذنها ، وظللن يهوين عليها فى قسوة بقباقيب الحمام ، حتى قضت نحبها .. فانطفأ ذلك السراج الذى أضاء فى مصر زمنا ، فبهر العيون ، وأسر بسحره القلوب !

الجوارى اللواتى سيطرن على سلاطين الأتراك !

◆ وقد أدارت شجرة الدر دفة الحكم فى مصر فى جو عاصف مثقل بالمصاعب الخطيرة ، والمصائب الجائحة ، فوصلت بأمتها الى شاطىء السلام فى قدرة ونجاح ؛ وكانت هى المرأة

الوحيدة التى استطاعت أن تحكم شعبا اسلاميا فى ربوع الشرق . فبالرغم من أن كثيرات من السلطانات العثمانيات كن على جانب كبير من السطوة والنفوذ ، فانهن لم يكن يتمتعن أبدا بمثل تلك السلطة المطلقة التى كانت لشجرة الدر . ومن هاتيك السلطانات ، ثلاث لعبن دورا عظيما فى التاريخ التركى: أولاهن « كريم » ، الزوجة المعشوقة للسلطان سليمان الأكبر، وقد كانت جارية روسية ، وكان لها عليه تأثير قوى الى آخر حياتها ، حتى أنها حرضته مرة على ابنه الأكبر ، وهو وارث العرش ، فأطاعها وقتله ! وقد ظل نفوذها عليه طاغيا ، حتى بعد أن ذهبت جاذبية شبابها وفتنة طلعتها ، من فرط ما كانت تمتاز به من الكياسة والدهاء .

وكذلك كانت السلطانة صفية ، زوجة مراد الثالث ، تتمتع - باعتبارها عشيقة السلطان ووالدة ولى عهده - بقوة وسطوة عظيمتين ، فحكمت الامبراطورية العثمانية زهاء ثمان وعشرين سنة ، منها عشرون كزوجة للسلطان ، وثمان كوصية على ابنه الصغير « محمد الثالث » ، وكانت صفية جارية ايطالية أصلها من أسرة نبيلة فى البندقية .

غير أن شخصية السلطانة « كيسيم » قد تكون أقرب الى ما اتصفت به الملكة المصرية . وقد كانت «كيسيم» جارية يونانية استحوذت على قلب السلطان احمد الأول ، فاختصها دون غيرها بالعشق والتدله ، واتخذها زوجة له ، فكان لها عليه أبلغ الأثر . وبعد وفاته أقيمت وصية على خلفه ، وهو ابنها الصغير « مراد الرابع » ، فظلت السلطنة فى قبضة يدها خمس سنوات . وأما مراد الرابع هذا فهو « نيرون » التاريخ العثمانى ، وعهده كان أكثر العهود ارهابا ورعبا وتلطخا بالدماء .. حتى ان العقل لينذهل والبدن يقشعر من هول وحشيته وقسوته وتحجر قلبه ! فلما توفى فى عام ١٦٣٧ أخرج شقيقه ابراهيم من السجن - الذى كان فيه بأمر أخيه -

ورفع الى العرش . وللمرة الثانية استدعيت « كيسيم » لتكون وصية على السلطان . غير أن هذا ـ رغم أن أمه حكمت باسمه ما يزيد على عشرة أعوام ـ قد أثار عليه السخط والكراهية بسبب اسرافه ومفاسده .. فحكم عليه بالموت وقتل ! وعبثا حاولت السلطانة ، وجاهدت بكل ما أوتيت من قوة وحول ، أن تنقذ ولدها .. فاقترحت أن يبقوا على حياته ، على ألا يسمح له بالحكم الا تحت الملاحظة الشديدة من العلماء والوزراء. ولكن طريقة الحكم الفردى الاستبدادى فى الدولة العثمانية لم تكن لتتفق مع هذا الوضع ، فقضوا على حياة السلطان .. وأجلسوا على العرش بعده حفيد السلطانة ، « محمد الرابع » ، وكان لا يتجاوز التاسعة من عمره .. وللمرة الثالثة طلب من « كيسيم » أن تحكم باسم السلطان الصغير . فيالها من ثقة عجيبة فى امرأة .. بين شعب شرقى !

ولكن الدسائس بدأت تدبر ضد « كيسيم » فى السنوات الاخيرة من حياتها ، وأخذت سلطتها فى التضاؤل والانكماش أمام سحر عينى الغادة الروسية الجميلة « تارشان » ، التى غزت بنضارتها وفتنة دلالها قلب السلطان ، فتزوجها ، وأحلها من نفسه محل جدته العجوز . وأخيرا وقفت « كيسيم » فى اجتماع رسمى كبير ، وكانت جالسة عن يمين السلطان ، وقالت فى جسارة وجلال : لقد خدمت أمتى باخلاص ، فكان جزائى الكره والاضطهاد ، بل التهديد بالموت ، وعشت فى سبعة عهود ، فتمتعت طويلا بالسلطان والجاه ، وقد تعبت، فكفانى . » وكان هذا آخر عهدها بالحكم . **وفى النهاية اتهمت تهمة باطلة بتسميم حفيدها السلطان ـ وقد كان يحيط بها زمرة من الدساسين الذين كانوا يملأون البلاط العثمانى على الدوام ـ فنكل بها وقتلت !**

غير أنه مع ما كانت عليه السطانة التركية من القدرة والوطنية ، فأن الفرصة لم تسنح لها لتلعب ذلك الدور العظيم

الذى لعبته الملكة المصرية ، فهى تشبهها حقا فى كونها قد « ملكت » ، ولكنها لم «تحكم » مثلها ، ولا بلغت آبدا مثل ما بلغته شجرة الدر من ذكر الخطبة باسمها فى المساجد وفى الصلوات العامة ، وصك اسمها على نقود الدولة !

على أن موت كيسيم كان فاجعا كموت نظيرتها المصرية .

واذن فعلى هذه الصورة ماتت شجرة الدر الخالدة ـ فكانت نهايتها كنهاية « ايزابيل » الغانية التى وردت قصتها فى التوراة ـ وقد ألقيت جثتها نصف عارية من أعلى أسوار القلعة الى أسفل الطابية ، وهنالك بقيت عدة أيام فى العراء ، دون أن يتقدم احد لدفنها ! .. واخيرا حملوها فى قفص الى الضريح الذى أعدته لنفسها بقرب المشهد النفيسى . وهنالك ووريت التراب من غير احتفال ، ولا طقوس !

وهكذا هوى ذلك الكوكب المنير الى ظلمة القبر ..

وأما قاتلو الملك ، فقد مثل بهم أبشع تمثيل ، وعلق

هكذا تطورت الأسلحة واردية القتال خلال الحروب الصليبية

زعيمهم « محسن جوهرى » ، مشنوقا على باب القلعة وضرب أربعون من خصيان القصر بالسيف عند الوسط ، فشطر كل منهم نصفين وعلق كل نصف فى ناحية على طول الطريق من القلعة الى باب زويلة !

ومن يدرى ، فلعل أكثر هؤلاء التعساء لم يكن يعلم شيئا عن الجريمة ، وان كان أحدهم قد علم ، فما كان فى استطاعته منع وقوعها .. ولكن ، كان لابد من وجود من يعاقب والسلام !

السلاطين .. والفنون

◆ **كان** أولئك الحكام الثلاثة ، الذين ألمحنا الى تاريخهم فى الصفحات السالفة ، أنموذجا واضحا لحكام المماليك ، يمثلون الأسرة الأيوبية أصدق تمثيل . **الاسرة التى تبوأ العرش أربعة وعشرون من أفرادها ، ليس بينهم غير ثلاثة ماتوا على فراشهم ميتة طبيعية وهم محتفظون بعروشهم .. أما الباقون فقد اغتيل منهم سبعة ، وعزل تسعة ، وتنازل أربعة ، وواحد - وهو بيبرس - تسمم قضاء وقدرا ! - ولو أن البعض يعزون موته الى اصابته باحدى الحميات الفاتكة .**

وقد تحسنت أحوال مصر تحسنا ملموسا فى عهد أسرة المماليك الشراكسة المدعوين بالبرجيين ، وتقل فى تاريخهم مظاهر الغدر والخيانة والوحشية ، التى اتسمت بها غالبية عهود الحكم فى مصر فى ذلك العصر ، ولو أنه بقيت أثناء حكمهم نفس عوامل الشغب والفوضى . فالظاهر أن هذه العوامل كانت لا مفر منها تحت نير تلك الحكومات الطاغية المستبدة . ويعلل بعض المؤرخين ذلك التحسن الذى طرأ على الاداة الحاكمة فى مصر على عهد البرجيين ، بتفاقم خطر القوة العثمانية التى كانت تهدد مصر ، والتى طوحت فعلا فى النهاية بسلطة المماليك ، فكان لا بد من يد صالحة ومصلحة للصمود أمام ذلك الخطر .

وقد حكم من البرجيين اثنان وعشرون سلطانا ، مات ستة منهم ميتة طبيعية ، وهم على عروشهم ٠٠ وقتل ثلاثة ٠٠ وعزل ثمانية ٠٠ وتنازل ثلاثة ٠٠ وسقط واحد فى احدى المعارك ٠٠ وأما آخر سلاطينهم ، « طومان باى » فقد شنق فى قسوة وعلق على باب زويلة ، بأمر الفاتح العثمانى السلطان سليم !

وقد نجح من هذه الأسرة في ادارة الدولة سلاطين عديدون ، أظهروا براعة وحكمة وحنكـة ، ونالوا الى جانب ذلك حب رعاياهم وولاء شعوبهم ، تينك النعمتين اللتين قلما تمتع بهما ملك أو حاكم ٠

اجتمعت فيهم القسوة الوحشية ، والذوق الفنى المرهف !

◆ ولعل أعجب شيء فى تاريخ هؤلاء الأتراك والشراكسة من حكام مصر ، هـو حبهم العظيم للفن ، وتشـجيعهم الرائـع لأصحابه ، وتذوقهم الرفيع لتحفه وطرائفه ٠ وقد تجلى ذلك العشق السامى لبدائع الفنون فى حياة جميع السلاطين عـلى السواء ، الذين سمح لهم طول أعمارهم أو طول مكثهم على عروشهم بتخليـد ذكراهم فى تلك الآثار البديعـة التى تطالعنـا من عهودهم ٠

فواعجبا لذلك الرجل الذى ـ لأتفه شبهة أو أقل هفوة ـ يقتل أقرب الناس اليه ، كيف يكون هو نفسه ذلك الفنان المبدع الذى يضع بنفسه تصميم مسجد جميل أو قصر منيف ، ويطربه مجلس الأدباء والشعراء والمبتدعين ! ؟ ٠٠ انه فى الحرب يلقى بنفسه فى ميدان الجهاد والتضحية كأبسل الشجعان وأنبـل المضحين ، ويقضى على أعدائه بلا هوادة ولا رحمة ، فاذا انتهى النضال وعاد الى عاصمة ملكه ، عاودته رقته ودماثته وسـمو مشاعره ، فغدا امام المفكرين والفنانين ٠٠ ولكن لا عجب ، فهو الشرق دائما ، مهد الأعاجيب !

وانا لنلمس فى ذلك الوصف الرائع الذى دبجه « ستانلى لينبول » فى كتابه « الفن الاسلامى فى مصر » تلك الابهـسـة

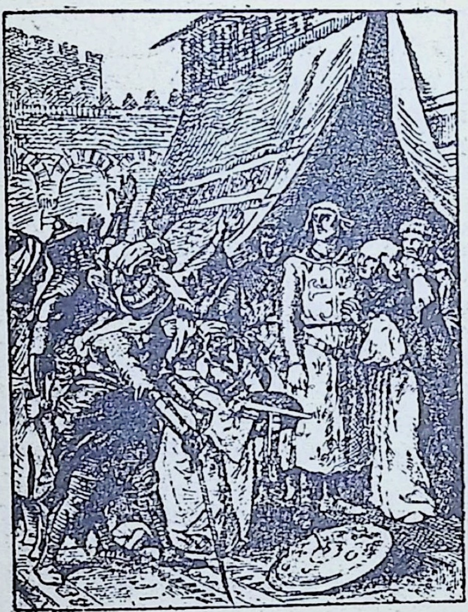

لويس التاسع خارجا من خيمته فى احدى حملاته

الفاخرة ، والوجاهة الزاهرة ، التى كان يظهر بها سلاطين مصر فى منازلهم ومحافلهم ، ورونق بلاطهم ، وتانق سيمائهم، وتألق الأنوار فى أبهائهم ، ورواء منظرهم ، وسناء شارتهم ، وتنعمهم ، ورفاهيتهم فى معاشهم ورياشهم ، وطنافسهم وملابسهم ، وتنميق بيوتهم ، وتزويق أسلحتهم ، وتجمل نسائهم .. كل ذلك نلمحه بين تلك السطور الدارسة من آثارهم الجميلة ، التى نجت من يد الفناء ، تلك الآثار القليلة المحفوظة

فى المتحف العربى بجامع طولون ، أو المنتشرة فى أنحاء القاهرة .. فلنقف على أطلال تلك التحف التى أبدعها فنانوهم، والتى حفرت عليها السنون الطويلة من الاهمال والنسيان سطورا عميقة من الشقاء والخراب .. فلنقف على أبواب تلك المساجد الجميلة ، وهى قائمة كعرائس من بنات الاغريق ، وتلك القصور الرشيقة البنيان ، والدقيقة التكوين ، التى منذ خمسة قرون خالية جعلت من القاهرة أجمل مدن العالم .. وزينة الدنيا !

فياللحسرة على تلك البدائع التى امتدت اليها يد الخراب ، فشوهت محاسنها الخالية ! وحتى ما وهبه المحسنون لاصلاحها من غلة الوقف ، قد ضيع هدرا ، وأسىء استعماله ، واستبيح عند الضمائر الفاسدة أكله ، فما تنبه اليه أحد الا فى السنوات الأخيرة ، وما ترك من أموال الوقف غير جانب يسير لذلك الغرض الأصلى الذى من أجله وقف الواقفون .

ومن ناحية أخرى فان ذلك الذى يسمونه « اصلاحات حديثة » فى تكوين الشوارع والمبانى ، قد مد الى أجمل أحياء المدينة القديمة يد الهدم ، فقضى على مبان كانت فريدة المثال ، فى حين أنه كان من الممكن اذا بذلت أزهد التكاليف فى ترميمها وتعميرها أن تبقى أجيالا أخرى عديدة ، مأثرة لمصر ، ومفخرة للمصريين .

وقد حلت الجدران المستوية الجامدة المبيضة التى لا طعم لها ولا ذوق فيها ، محل تلك العمائر الرائعة والنقوش العربية الجميلة ، والزخارف التى تحلى منازل مصر القديمة . وحلت النوافذ المستطيلة الماسخة محل المشربيات الانيقة ، ولم تعد الأبواب ضخمة رحبة كما فى القديم ، ولا مزدانة بالنقوش وملبسة بفصوص العاج والأبنوس ، وبزخارف من الحديد أو النحاس المطروق .. ولم تعد فى أسواق القاهرة تحفة تسر النفس ، أو طرفة تفتنى ، غير قطع حديثة خشنة ، قليلة

الاتقان ، عديمة الفن ، لا شك أن صناع القرن الثالث عشر كانوا يخجلون من عرضها أو نسبتها اليهم !

وقطع القيشانى البديعة الفارسية (والمصنوعة فى الواقع فى القاهرة) التى كانت تحلى بها جدران الدور العامة والمنازل الخاصة، قد انتزعت من أماكنها ، وبيعت الى الأفاقين من السواح .. والزجاج الملون بأروع الألوان ، والمزين بأبدع النقوش ، تحطم منه ما يرجع الى عهــــد الفاطميين ، واندثر عن آخره . أما مايرجع الى عهد المماليك فلم يبق منه غير القليل ، وهذا القليل هو تحف فاخرة من المصابيــح وكؤوس الخمر وأقداح الماء ، وكلها مبعثرة الآن فى المتحف العربى بجامع طولون ، وفى المتاحف الاوربية المختلفة .

ولا زال للمتأمل نصيب من المتعة فى استجلاء الآثار الباقية من بدائع الفسيفساء ، التى ما زالت تزدان بها بعض المساجد، والتى تشبه كثيرا تلك الموجودة فى كنيسة القديس مرقس (سان مارك) بالبندقية ، وكذلك ثمة بقايا نادرة من النوافذ الزجاجية الملونة الدقيقة الصنع التى كانت تزدان بها جميع الدور العامة بالعاصمة فى وقت من الأوقات .

ولا تقل عن كل هذا بداعة وجودة صناعة تلك القطع الجميلة من النسيج التى ترجع الى القرن العاشر والقرن الحادى عشر والمحفوظة فى متاحف أوروبا ، مع كثير من التحف التى ترجع الى عهود حديثة .. وتعزى كثرة الموجود من هذه المنسوجات الى ما كان شائعا فى عهد السلاطين المصريين من الاسراف فى منح حلل الشرف المسماة بالخلع ، كمظهر من مظاهر تقدير السلطان لمن يرضى عنه من رعاياه !

مظاهر البذخ فى الاحتفال بتنصيب السلطان « بيبرس »

◆ **ويصف** المقريزى حفلة تنصيب السلطان « بيبرس » بواسيطة الخليفة العباسى فيقول : « كان السلطان قبل تنصيبه

يلبس فى العادة رداء أسود ذا أردان ضيقة ، وكان هذا هو اللباس التقليدى للعباسيين ، فلما أقيم الاحتفال بتتويجه ألبس وشاحا قرمزيا ذا رباط ذهبى ، وعمامة سوداء محبوكة الأطراف موشاة بخيوط الذهب ، وقد تدلت عند خاصرته سلسلة بديعة مرصعة بالزمرد والياقوت ، وجىء له بعدد من السيوف الجميلة ، فاختار من بينها واحدا علقه فى حمالة على جنبه الايمن ، وأركب على حصان ناصع البياض ، مزدان بركابة من الحرير الأزرق المفوف بزخارف القصب ، وسار خلفه القضاة والعلماء وكبار رجال الدولة ، يتقدمون الموكب ، لابسين خلعهم ، وحاملين قلائد الانعامات الأخرى الممنوحة لهم من السلاطين ، وعلى رأسهم كبير وزراء الدولة وهو « ابن لقمان » الذى سجن لويس التاسع فى بيته بالمنصورة ، رافلا فى ثوب فضفاض من الحرير الأصفر الفاقع . وكان المسيحيون واليهود يكونون جانبا من الموكب ، حاملين الانجيل والتوراة ، والحرس يحيطون بالأمير ممتطين صهوات جياد شهباء ، وعليهم أردية حريرية تحاكى فى جمالها وألوانها الزاهية بساطا من السندس .

وكانت المنازل مزدانة بأنسجة الحرير وأغصان النخيل ، والشوارع مغطاة بفرش حريرية صفراء وحمراء ، على طول الطريق من باب النصر الى بوابة القلعة . وفوق رأس السلطان كانت ترتفع المظلة الملكية ذات الحمائل الحريرية والألوان الخلابة ، ولم يكن غير الأمراء والكبراء من لهم شرف حملها . ورفرفت حول السلطان البنود الخافقة والرايات الدمقسية الموشاة بالذهب ، وتدلى على جانبه السيف الذى ورثه آباؤه عن خليفة الاسلام عمر بن الخطاب .

ووسط هذه المظاهر الباهرة والأبهة الملكية ، وقف « ابن لقمان » ، وزير الدولة الأول ، وتلا على الشعب براءة الخليفة لتنصيب السلطان ، وقد خوله فيها السيطرة على امبراطورية مصر ، وعلى كل ما يفتحه « بيبرس » من الممالك .

وكان هذا الحفل عرضا لمظاهر البذخ نادر المثال ـ فقليلا ما تكرر ـ ولو أن « بيبرس » اعتاد فى أثناء حكمه أن ينتهز الفرص لاقامة مثل هذه المواكب الحافلة ، وخاصة حينما يخرج مع حاشيته للمساهمة فى شوط من أشواط « البوللو » . أو للتلهى برماية السهام وهو على ظهر جواده ، وقد كان فى ذلك ماهرا ، بل أمهر من كل مماليكه ، بالرغم من أنه كان يشد القوس بيده اليسرى .

ولكن تحت هذه الفخفخة والأبهة ، لم تختف أبدا روح القتل والاغتيال ! .. فحتى « بيبرس » الذى لم يكن يخاف من شىء ، والذى استأصل شأفة المقتالين والسفاحين ، كان مضطرا أن يلبس تحت ردائه فى تجواله أو فى المواكب العامة والاحتفالات الرسمية درعا من الزرد الحديدى ، الذى يقيه من الطعنات الغادرة بالسيف أو بالخنجر .. ففى أية لحظة ، كان من أقرب الأشياء المتوقعة أن يعتدى على حياته أحد المتهوسين !

ومن الوصف الدقيق الذى أتى به المقريزى لهذا الدرع الزردى الذى كان يلبسه « بيبرس » تحت ردائه ، والذى توارثه عنه سلاطين عديدون ، يتبين لنا أن ثمنه كان يزيد حينذاك على أربعة آلاف درهم ، أى ما يساوى مائة وستين جنيها .

قلعة لويس التاسع فى (صيدا)

الفصل الثامن

سادة .. وعبيد !

◆ وكانت أناقة هؤلاء القوم ورفاهيتهم فى حياتهم الخاصة تتفق الى حد كبير مع تلك المظاهر العامة التى عرفناها عنهم ، ولكن الواقع أن هذا التنعم والرخاء لم يكن يتمتع بهما فى البلاد غير فئة قليلة جدا . أما الكثرة الغالبة من الشعب المصرى فكانوا يفلحون ويكدحون وآخر الأمر لا يكادون يصيبون غير الكسرة السوداء .. بينما أولئك الذين يحكمون ويتمتعون لم يكونوا غير حفنة من الأجانب الأفاقين ، وخليط من كل شعب ، وأرقاء مجلوبين ، أو معتوقين ، لم يكونوا غير دخلاء على هؤلاء التعساء !

ولكنهم كانوا على قلتهم أسياد البلاد ، وفى قبضة أيديهم جميع مواردها ، ومن ثم كانوا يعيشون فى القاهرة حياة الأبهة التى صورنا جانبا منها ، والتى كانت لا تضاهيها حياة مدينة أخرى فى العالم حينذاك اللهم الا أن تكون مدينة البندقية ! .. فجميع موظفى القصر وأمراء المماليك وندماء السلطان ، وتابعوه ورواده ، بل حتى كثير من الخدم وجنود الحرس ، كان يملك كل منهم اقطاعيات واسعة من الأراضى ، فى مصر أو سوريا ، موهوبة له من السلطان .

وقد بلغ ما كانت تأخذه الدولة على عهد السلطان « لاشين » فى سنة ١٢٩٩ من الاقطاعيات الكبيرة عشرة آلاف اردب من القمح ، غير الخيل والماشية ، والسكر والعسل ، وتشكيلة عظيمة من المنتجات الأخرى ، فضلا عن الأموال النقدية . وكان الذى يتسلم كل ذلك هو « منجو تيمور » نديم السلطان ونائبه ، الذى كان منصبه أرفع منصب فى الدولة ، ولابد أيضا

أن ثروته كانت طائلة ٠٠ غير أن نهايته كانت نهاية فاجعة ، فقد اغتيل سيده « لاشين » ٠٠ وألقى هو فى السرداب الرهيب المحفور تحت الأرض فى سجن قلاوون ٠ لكنه لم يبق فيه غير ساعات قليلة ، فقد أخرجوه منه ، وقتلوه !

وكانت الأراضى تزرع لحساب ملاكها بواسطة الفلاحين المقيمين عليها ، والذين هم الخلاصة الباقية من سلالة الفراعنة القدماء ، ولم يكن منهم من يتمتع بأية سلطة أو مكانة فى البلاد اللهم الا شيخ البلد ، الذى كان مسئولا أمام الحكومة عن جمع الضرائب ، وكانت له فى الواقع سلطة غير محدودة على الفلاحين فى قريته ٠ وكان لكل من هؤلاء الفلاحين قطعة صغيرة من الأرض تخصه ، ولكنها لم تكن ملكا خالصا ولا مؤبدا له ، لأن كل أراضى مصر كانت نظريا ملك الحكومة أى السلطان ، الا أنه بحكم العادة كانت الأراضى تنتقل فى الواقع الى أيدى الوارثين حسب الشريعة الاسلامية ، وكانت خاضعة لقاعدة العشور أو اية نسبة أخرى من الضرائب تفرضها الحكومة ٠

وأما أصحاب الحرف فقد كانت ترتب لهم جراية يومية يتقاضونها اذا كانوا يشتغلون للحكومة أو لأحد أصحاب الاقطاعيات ، ولكن لم تكن تعطى لهم نقود !

شدة السلطان كانت صمام الأمن للسيطرة على المماليك !

◆ **وكان** الأمراء ذوو الثروة القوة يمنحون ـ من جانبهم ـ اقطاعيات من ممتلكاتهم الشاسعة لمماليكهم الذين يخدمونهم ويدافعون عنهم ، فكان كل منهم يظهر بذلك سطوته ، ويتفاخرون على بعضهم البعض بما لكل منهم من ضياع وأتباع ٠ ولذا فقد كانت أسباب الاضطراب والنزاع الداخلى متوفرة على الدوام ٠ وكان طابع الحكومة على العموم هو الظلم والاستبداد الدائم والتقليدى ، **فما كان على السلطان لكى يسوس البلاد**

الا أن يحيط نفسه بالأتباع والأشياع ويغدق عليهم الهبات والانعامات ويسلطهم على رقاب الناس ، أو يضرب أحد الأمراء بالآخر ، لكي يسيطر هو على الاثنين ! .. فاذا أعوزت السلطان تلك الشدة المطلوبة لاستبقاء المماليك خاضعين لشوكته ، أو أخفق في ارضاء رغباتهم وتحقيق أمنياتهم ، فما كان أبسط من خلعه أو قتله أو تأليف عصبة من الأشرار لكي تقرر مصيره بحد السيف ، الا اذا بادر بالتنازل عن عرشه !

وكان السلاطين ازاء هذه الاخطار يوقعون على اعدائهم فى حالة التمرد أو العصيان أشد الجزاءات وأقساها . ومن ذلك أنه فى سنة ١٢٩٥ - ابان حكم « قلاوون الثانى » ، وكان ما يزال طفلا - اعتصب عدد كبير من عبيد السلطان السابق له المدعو « الأشرف » ، وكان قد قتل ، وهجموا على احدى الحظائر الحكومية الكبيرة ، فأخذوا ما فيها من الخيول ، ثم اندفعوا الى حى من أجمل أحياء القاهرة ، وراحوا يعيثون فيه نهبا وسلبا واعتداء ، وفى آخر الأمر أحرقوه ! .. ومن ثم جمع الأمراء مماليكهم لمقاتلتهم فأخذوا منهم حوالى ثلاثمائة أسير ، وأنزلوا بهم العقاب دون أية محاكمة .. فأعدموا بعضهم ، وأغرقوا البعض الآخر ، وفقئت أعين كثيرين منهم ، وآخرون قطعت أيديهم وأرجلهم ، فما نجا من الموت غير قليلين . والواقع أن مثل أولئك المتوحشين لم يكن من الممكن أن يخضعهم غير حاكم قاس لا رحمة فى قلبه ، والا تنمروا وافترسوا !

« بيبرس » يشنق رئيس خصيانه !

◆ **وكان** للسيد سلطة مطلقة على جميع رعاياه : على حياتهم ، وحريتهم ، وأموالهم ، والعبد وما ملكت يداه ! .. وكان عليه فى مقابل ذلك أن يكابد الخوف الدائم على حياته ، ويحترس فى كل لحظة من الاغتيال .. وأن يقف دائما فى الجانب القوى من

تطور الأسلحة واردية القتال خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر اللذين وقعت أثناءهما الحروب الصليبية

الميدان ! .. فما أكثر ما نجده بين صفحات الكتب العربية من أمثلة القسوة والتنكيل من جانب ، ومن أمثلة الغدر والتقتيل من جانب آخر : **فلو أن السلطان ارتاب فى شخص ، أو خاف منه ، أو كره وجوده ، فما أهون عليه بكلمة واحدة أن يقتله ، أو يلقى به فى عذاب أليم .. وما أكثر تلك الحوادث التى قرأناها عن أمراء سجنوا ، وعذبوا وسلبوا ، وصودرت أملاكهم ، وضربت أعناقهم .. بل اننا لنجد أمثلة للقسوة التى لا يتصور العقل وجودها فى نفس بشرية ، كالذى حدث لرئيس الخصيان فى عهد « بيبرس » ، وكان ذا مكانة عظيمة عند السلطان ، فقد أمر بجلده وشنقه ... لماذا ؟ لأنه شرب نبيذا فسكر !!**

وعلى الرغم من السلطة المطلقة التى كان يتمتع بها أولئك الحكام ، فانهم لم يكونوا ينسون أبدا ـ وتلك احدى فضائلهم ـ

أصلهم الذى نشأوا فيه ، ولا كانوا يخجلون منه ، بل على العكس كانوا يذكرونه ويفخرون به ·· فاذا كتب أحد حكامهم الى حاكم آخر ، أو الى أحد ذوى الشخصيات الكبيرة ، لم يكن ينسى أبدا أن يضيف الى لقبه كلمة « مملوك » · من ذلك ان « بيبرس » كان يكتب الى أمير اليمن ، فيحرص بعد توقيعه الذى يلقب فيه (بصاحب السمو الملكى السلطان) أن يضع بخط يده كلمة « مملوك » ! ·· وحين كتب « قلاوون الأول » الى صديق قديم هو الأمير « شنقر أشقر » ليخبره بتبوئه العرش ، كان فى الكلام عن نفسه يستعمل ضمير الغائب فيقول « يكتب المملوك (فلان) ··· لكى يكون معلوما ··· » أو « يظهر المملوك (فلان) أمام الشعب بما يليق بسجايا الأسرة المالكة ·· » ·· الخ

سجن القلعة الرهيب ·· مقبرة الأحياء !

◆ **وكانت** فى مصر سجون كثيرة ، ولكن أعظم السجون اثارة للفزع والرهبة كان سجن القلعة ، وهو سرداب كبير تحت الارض كانت تصله بالخارج بئر عميقة كان المسجونون التعساء يدلون فيها بواسطة حبل يربط عند الوسط ، وقد حفر هذا السرداب فى سنة ١٢٨٢ على عهد الملك « منصور قلاوون الأول » ليكون معتقلا خصوصيا للأمراء ، وقد ظل مستعملا لهذا الغرض حتى سنة ١٣٢٦ حين أمر بتدميره الملك « ناصر محمد بن قلاوون » ، وكانت لذلك التدمير قصة ·· فقد حدث أن مدير السجن و « بكتيمور » حامل كأس الملك كانا يزوران السجن ذات يوم ، وكان معهما رجل اعتاد أن يمزح معه بكتيمور مزاحا قاسيا فأراد أن يسخر منه ، **وأمر بأن ينزلوه الى السرداب ·· وقد ظل فيه حتى أخرج فى اليوم التالى ، فقص على صديقه بكتيمور ما شاهده فى ليلته ، وما يقاسيه أولئك البؤساء**

المدفونون فى ذلك القبر المخيف من ألوان العذاب والشقاء : من الظلام المقبض ، والهواء الخانق ، والرائحـــة المميتة ، وأسراب الخفافيش ، وأكوام الحشرات والهـوام ٠٠ بل من الموت البطىء الذى يتمنون أن يسرع ولكنه لا يجىء ! ٠٠ فتألم بكتيمور اى ألم وسارع الى السلطان يقص عليه ذلك القصص المفجع ، فأمر فى الحال باخراج المسجونين من ذلك السرداب ، وبردمه بعد ذلك الى الأبد !

وكانت العقوبات الرئيسية التى توقع على عامة الناس شنيعة مروعة : مثل الصلب ، وقطع الجسم نصفين بالسيف عند الوسط ، والتسمير فى خشبة ٠٠ وكانوا يعرضـــون المذنب على هذه الصورة ، محمولا على جمل ، ويطوفون به فى أنحاء المدينة ! ٠٠ والظاهر أنه لم يكن ثمة قانون ولا قاعدة للعقاب ، وانما كانت تتوقف العقوبات فى غالب الأحوال على هوى الحاكم !

ابحار لويس التاسع لقيادة احدى حملاته

أما حفظ النظام فى القاهرة فقد كان موكولا الى فئة من رجال الشرطة الذين كانوا فى منتهى الشدة والقسوة ، وكانت أحياء المدينة معزولة عن بعضها بأبواب ثقيلة كبيرة الحجم مصفحة بالحديد ـ ولا يزال بعضها موجودا ، ولو أنها لم تعد تستعمل ـ فعندما يأتى المساء ، أو فى حالة الثورة والقتال ، كانوا يغلقونها ، وكل من يبتعد عن بيته أثناء الليل يلزم بأن يحمل مصباحا أو يتقدمه بالمصباح أحد خدمه ، فاذا خالف أحد هذه القاعدة يعرض نفسه لأشد العقوبات !

وكان على كل حى من أحياء المدينة ضابط يسمى « الوالى » أو « المتولى » ، ويلزم جميع رجال الشرطة باحاطته علما بكل ما يحدث فى الحى ، وعليه هو بعد ذلك أن يعد ملخصا شاملا لتقاريرهم ويرفعه بانتظام الى السلطان ، وكان هذا الوالى يملك سلطة واسعة ، بلا مراعاة لأى اعتبار قانونى ٠٠ فكان فى امكانه توقيع العقوبات ولو كانت الاعدام ، ومن واجباته المرور كل ليلة على أقسام المدينة ، فلم يكن فى استطاعته قضاء ليلة بعيدا عن القاهرة بدون اذن كتابى ، وكذلك عليه ادارة السجون وفتح أبواب القاهرة واغلاقها ٠٠ الخ

غير أن كل هذه الأمور الادارية كانت كغيرها يتوقف سيرها الى حد بعيد على شخصية السلطان ، فحين يكون شديدا يقظا يتم كل شىء على أحسن حال ، أما حين يكون السلطان ضعيفا متواكلا فتكون النتيجة انتشار الاجرام وتفشى المخالفات فى كل نواحى الحياة بالمدينة ٠ ولقد كان من أعظم النقائص فى تاريخ الشرق ذلك الحكم الذى يجعل كل أمر من أمور الدولة ولو كان تافها متوقفا على أخلاق الحاكم وطباعه ٠ فمرة تلو الأخرى كان يحدث حين يكون الحاكم ضعيفا أو فى أوقات الخطر العام على الدولة ـ كما فى وقت التهديد بغزو التتار ـ أن الحاشية المحيطة بالسلطان تنتهز فرصة هذا الضعف أو ذاك الخطر فترتكب أشنع الجرائم وتنتهك أقدس الحرمات ٠ ومن ذلك ما حدث

فى دمشق على عهد « قطز » ، (سنة ١٢٦٠) ، اذ اغتصب عبيد السلطان مع الدهماء والرعاع وعاثوا فى المدينة فسادا ، فنهبوا وسلبوا وقتلوا ٠٠ ومع ذلك فالظاهر أنهم لم يلاقوا أى عقاب !

الفصل التاسع

السكان والحالة الاجتماعية

◆ وثمة موضوع آخر بالغ الأهمية لم يعطنا عنه المؤرخون العرب سوى معلومات جد قليلة ، هو تعداد السكان فى مصر وموارد البلاد فى ذلك العهد ، ومن ثم كان التوصل الى معرفة التعداد أمرا عسيرا ، بل غير ممكن ٠٠ أما الموارد المالية ، فبالرغم من أنه كان فى الامكان تقديرها بدقة ، وخصوصا فى عهود السلاطين الأشداء المقتدرين ، فان هذا التقدير كان محجوبا عن أعين الشعب ، فلم يكن يسمح للجمهور بالتطلع الى معرفته !

وحينما اعتلى « بيبرس » عرش السلطنة ، أوجس المصريون خيفة من استمرار الظلم والاستبداد الذى كانوا فيه على عهد السلطان السابق « قطز » ، فان هذا الأخير حينما كان مزمعا أن يسير بجيشه لملاقاة التتار ، ابتدع نظاما جديدا يبعث على الغيظ والحنق ، اذ أمر بمسح الأراضى من جديد ، ليتمكن من تنظيم جمع الضرائب وزيادتها ٠ ويبدو أن عماله أساءوا استعمال سلطتهم مع الأهالى فلجأوا فى جمع الأموال الى طرق عنيفة قاسية ، بل الى كل طريقة ممكنة أو غير ممكنة ٠٠ بينما أعفى الأتراك من ثلثى الضرائب ، وكذلك فئات كثيرة من الأجانب !

غير أن « بيبرس » ، وقد كان كريم الطبع نبيل الخلق ، افتتح حكمه بتبديد تلك المخاوف المخيمة من حوله ، فبادر الى العمل على اكتساب محبة شعبه ، وكان أول ماقام به هو الغاء جميع الضرائب الجديدة التى كان مقدرا لها أن يبلغ دخلها ستمائة الف دينار (وتساوى ٣٥٠ الف جنيه) ٠ ولا شك

أن الاستغناء عن مبلغ ضخم كهذا دفعة واحدة هو دليل قوى على وجود دخل سنوى عائل للدولة ، وربما كان لا يقل عن عشرة أضعاف ذلك المبلغ ، أو ربما أكثر من ذلك !

ولا شك أن مصر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانت أعظم ثروة وأكثر موارد من أية دولة فى أوروبا فى ذلك العهد ! .. فقد كانت التربة الخصبة ، والطقس المعتدل ، والشعب المجد الكداح ، منابع للثروة لاتضاهى ، ومصادر للانتاج لم تكن تتمتع بمثلها أمة أخرى .. فكان محصول السنة العادية لوادى النيل يربو بكثير على حاجة السكان . ومن ثم كان جزء كبير منه يصدر للخارج ، بعد أن تمتلىء جميع المخازن العامة التى كانت تخزن فيها الغلال ، احتياطا لأيام الضنك أو المجاعات الطارئة . ولابد ، وقد كان هذا الرخاء يعم بلاد مصر ، انها لم تكن تعرف ابان القرون الوسطى ذلك البؤس الذى كانت ترزح تحت نيره مدن أوروبا .. اللهم إلا فى الأحوال التى كان ينقص فيها فيضان النيل بالطبع ..

عندما خيم على مصر شبح المجاعة !

◆ **ويروى** المؤرخون أخبار أزمة قاسية اجتاحت مصر حوالى سنة ١٢٦٤ ، اذ ارتفعت أثمان الخبز ارتفاعا مريعا وخيم شبح المجاعة الرهيب على الأهالى ، وكان ذلك فى الغالب ناشئا عن العجز فى مياه النيل وماانتج عنه من الجدب والقحط ، ومن ثم قفز ثمن أردب القمح الى مائة درهم (أى مايساوى أربعة جنيهات) .. فبادر السلطان الى تحديد ثمن القمح ، آملا أن يخفف الضغط عن شعبه .. ولكن ، على غير ما كان السلطان يقدر ، جاءت نتيجة هذا الاجراء عكسية ، فقد حبس التجار الغلال ، وامتنعوا عن طرحها فى السوق ، فأصبح الغذاء معدوما ، وارتفع فى القاهرة ثمن أردب القمح أكثر وأكثر .. حتى بلغ

وفاة لويس التاسع ، قائد الحملة الصليبية السابعة

١٠٥ دراهم ، وبلغ ثمن أردب الشعير سبعين درهما ٠ وفى الاسكندرية ارتفع الثمن ارتفاعا مخيفا ، اذ بلغ أردب القمح ٣٢٠ درهما ، أى مايوازى اثنى عشر جنيها ! ٠٠ ذلك أن الاسكندرية كانت تفصلها عن وادى النيل صحراوات شاسعة قاحلة ، وكانت المواصلات قليلة شاقة ٠ ٠

واذ ذاك ، وقعت القاهرة فى براثن مجاعة مهلكة ، وامتلأت البلاد بالمتضورين الذين يقتاتون على أوراق الشجر ، ويحفرون الأرض بحثا عن جذور النبات ! ٠٠ وحينئذ عرف السلطان أن ذلك كله كان العاقبة الوخيمة للقانون الذى أصدره بتحديد السعر ، فأبطل هذا القانون ٠ ومن ثم فتحت الشون العامة ، وأفرج عن الغلال ، فتدفقت على أسواق القاهرة ٠ وأعلنت الحكومة أنها سوف تبيع من مخازنها ، بثمن مناسب ، خمسمائة

أردب فى اليوم .. ولكن على أن لا يباع أكثر من ويبتين الى أى شخص . وقد احتشد جمع هائل من الجائعين والمعوزين من سكان القاهرة فى حى الرملة ، حيث ألفت لجنة لمعونتهم ، وأخذت أسماؤهم للتحقق من أحوالهم . وقد أبدى السلطان أسفه لعدم توفير الغلال الكافية لامدادهم جميعا ، ولكنه قطع على نفسه عهدا بتدبير القوت اللازم لآلاف عديدة منهم ، وفعلا وزع على كل فرد من أفراد جيشه - من الضباط الى أصغر جندى - عددا من الفقراء قل أو كثر ، حسب قدرة كل منهم .

وتعهد كثير من الأغنياء والموسرين بأن يعول كل منهم جيرانه من الفقراء لمدة ثلاثة أشهر ، وأخذ كل وزير على عاتقه تغذية عدد كبير من مكفوفى البصر ، وكل قائد - « أتابيك » - عددا من العاجزين والمقعدين ، وكل من توفرت لديه الوسائل لمساعدة المعوزين قام بنصيبه فى ذلك الواجب الوطنى النبيل . وفتحت المخابز العمومية لامداد الناس بالخبز ، والمطاعم لتقديم الغذاء لهم ..

ولم يكن من الممكن تنفيذ هذه التدابير كلها فى يوم واحد ، فأمر السلطان عماله بقوله : « لقد جمعنا اليوم هذا الحشد من الفقراء التعساء لنطعمهم ، ولكن نصف اليوم قد ذهب ، فاعطوا كل واحد منهم نصف درهم حتى يمكنه أن يحصل على لقمة يتبلغ بها سحابة هذا النهار ، وغدا سنضع فى أيديهم مادبرناه لمعونتهم » .. فوزع عليهم مبلغ كبير لهذا الغرض ، ثم خاطب السلطان والى القاهرة « صارم الدين مسعودى » ، قائلا له : « اعتن بمائة فقير واطعمهم لوجه الله » . فأجاب الوالى بأنه قد قام فعلا بما طلبه السلطان ، فأخذ على عاتقه اطعام مائة من الفقراء على وجه الدوام » .. فقال له السلطان : « حسنا . لقد فعلت ذلك بمحض اختيارك ، فتكفل بهذه المائة الأخرى من أجل خاطرى !! » ، فوعد مسعودى بذلك .

وفى الحال بدأ توزيع الصدقات ، ونزلت الغلال الى الأسواق

.. فهوى سعر القمح مرة أخرى حتى صار عشرين درهما للأردب !

وأما الفلاحون فقد كانوا مشتغلين برى أرضهم وزراعتها والاعتناء بماشيتهم . كانوا بعيدين عن ذلك الجو الصاخب المملوء بالمفاسد والمكائد .. ولذلك لم يشر اليهم المؤرخون العرب، ولم يتركوا خلفهم آثارا تذكر ، وقد كانت مكانتهم من السلم الاجتماعى فى أدناه ، وظلوا كذلك فما ارتفع منهم غير قلة ضئيلة .

هكذا كان يبدو فيليب الثالث ، الابن الأكبر للملك لويس التاسع

الفصل العاشر

الصناعة والتجارة بمصر ، فى القرون الوسطى

◆ **كانت** فى مصر ، ابان القـــــرون الوسطى ، صناعات متعددة مختلفة ، وكانت كل مدينة من مدنها تنفرد بصناعة خاصة : ففى الاسكندرية والمنصورة والعاصمة ، بلغت صناعة الزجاج شأوا عظيما ، وقد كانت لهذه الصناعة منذ أقدم عصور التاريخ طائفة تتقنها فى مصر ، ويتوارثها فيها جيل عن جيل ، ولكنها بلغت عصرها الذهبى فى القرنين الثـــالث عشر والرابع عشر . هذا اذا فرضنا أن تلك التحف القليلة الرائعة التى بقيت حتى الآن انما ترجع الى ذلك العهد ، واذا فرضنا كذلك أنهـا صناعة مصرية ، وليست مجلوبة من البندقية .. وعلى كل حـال فمن المؤكد أن الزجاج الملون ، المحلاة به نوافذ المساجد والمنازل الخاصة ، هو صناعة أهلية .

وكذلك ارتقت فى القاهرة الى حد الاتقان والكمـال صناعة النحاس المطروق والمطعم بالفضة ، وحرفة التخريم والتفضيض، وزخارف الذهب والفضة ، وفنون صياغة الجواهر .. وقد كان ذلك كله بالغا من براعة الصنع وجودة الفن ما يبعث على التقدير والفخر .

ولا تزال باقيـــة ــ رغم طول العهـــد وامتداد يد الزمان بالتخريب والتدمير ــ آثار كثيرة من تلك الصناعة الجميـــلة ، صناعة الخشب المنقوش ، والمعشق، والمبروز ، وعمل المشربيات. وقد أدخل هذا الفن أخيرا فى صنع الأثاثات المنزلية ، وهو من أعظم الحرف نجاحا وازدهارا فى القاهرة ، وكانت سقوف الجوامع والبيوت مزخرفة بالخشب الملون أو المذهب ، وما زالت نماذج جميلة منها موجودة فى أنحاء القاهرة .

وكانت الفسيفساء المنمقة بقطع الرخام والمرمر الفاخر المعشق بالبلور والصدف والخزف والمينا تزين بها الجدران الداخلية للجوامع والأضرحة والمحاريب والمنابر ، وأحيانا أرضيات المنازل والأبهاء ٠

ولا نعرف اذا كانت قوالب الخزف الجميلة الفاخرة التى كانت مستعملة لزخرفة الجدران فى القاهرة وفى المدن الكبيرة ، مصنوعة فى مصر أم أنها كانت مجلوبة من الخارج ٠ ومهما يكن الأمر فقد ظل الصناع المصريون زمنا طويلا فى القرون الوسطى يعتمدون فى عملهم على الخامات الأجنبية ، فلم تكن ثمة مادة أهلية لصنع الخزف ٠ وقد بعثت هذه الصناعة فى العصور الحديثة ، غير انه لم ينجح حتى أبرع الخزافين المحدثين فى تقليد الآثار القديمة ، فثمة دائما فى الصناعة الحديثة ما يفضح للعين الخبيرة عدم اتقانها ، تحت غشاء التقليد الزائف !

٠٠ والزائر لدار « الجمعية الامبراطورية » فى (ساوث كنسنجتون) ، يشاهد هناك مجموعة بالغة الجمال من الخزف الفاخر ، الفارسى والسورى والقاهرى ٠٠ كما توجد فى (رودس) نماذج أخرى منه ، لكنها لا توازيها قيمة ولا جمالا ٠ والصناعة الفارسية هى أجود ما فى المجموعة وأكثرها اتقانا ، فان الفرس كانوا دائما أبرع فنانين فى هذا المضمار ، فى الشرق كله ٠

وفى كتب المؤرخين أن السلاطين كانوا من آن الى آخر يرسلون فى طلب الفنانين والصناع الفارسيين ، والعراقيين ، والسوريين ، واليونانيين ، للقيام بعمل معين ٠ وفضلا عن هؤلاء فان صناعا أجانب كثيرين أقاموا فى مصر تحت حكم السلاطين الأتراك ، الذين كانوا يمنحونهم امتيازات عديدة ٠

عندما كانت مصر دولة صناعية !

◆ **وكانت** مصانع النسيج فى مصر ، فى القرون الوسطى ،

كثيرة ومتنوعة ، اذ كان الحرير والدمقس هو النوع الوحيد الذى تلبسه الطبقات الثرية المترفة ٠٠ غير أن أغلبه كان مجلوبا من الخارج ، لأن الحرير المصرى أقل منه جودة ٠ وكانت أكثر المدن اشتغالا بنسجه هى القاهرة والمنصورة ، وكان فى دمياط نوع معين منه لا زالت مشهورة به ، الى جانب شهرتها كذلك فى صناعة الأقمشة القطنية (كالباتسته والموسلين) ٠ أما صناعة الصوف التى اشتهرت بها مصر فقد اختفت منذ زمان بعيد ٠

وقد كان من أهم منتجات مصر ، القطن والكتان أو التيل ، ولو أنه فى الوقت الحاضر لا ينمو الكتان بكثرة ٠٠ سيما وان الصناعات الأوروبية التى تستورد من المادتين قد اغرقت السوق

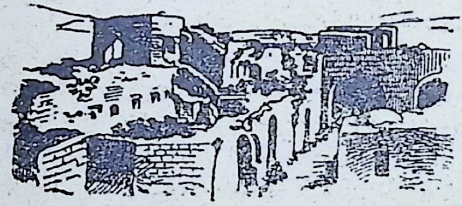

قلعة « تانكريد » ، احد قواد الحملة الصليبية الأولى ، وتقع على مقربة من بحيرة طبرية بفلسطين

المصرية فحلت تماما محل الصناعة الأهلية التى بدأت تموت بالتدريج ٠ ولو أنه فى بعض جهات مصر العليا وخاصة فى المنيا ما زالت تحيا صناعة النسيج اليدوى ، التى تنتج أقمشة قطنية متينة ، ذات ألوان زاهية ، وتستعمل فى الاستهلاك المنزلى

ولم تعد مصر ، بعد ، دولة صناعية ٠٠ فهى الآن تعتمد اعتمادا تاما على الزراعة ، ولكنها تحت حكم السلاطين الأتراك والشراكسة كانت تستجيب للطلب الدائم والمواسع النطاق للمصنوعات الأهلية ، سواء لسد حاجة الاستعمال الداخلى

أو للتصدير • وكان كل شيء ذو نفع فى الحياة ، بل كل صنوف الكماليات ، متوافراً فى الأسواق ، وعلى درجة من جمال الشكل ومتانة الصنع تبرهن الى حد بعيد على مقدار تقدير الطبقة الحاكمة وتشجيعها للصناعة والفن •

ويشير كتاب العرب فى القرن الثالث عشر الى نوع من المنسوجات يسمونه « طاراز » ـ وقد أخذ اسمه من اسم « دار الطاراز » وهى مدينة فارسية كانت تقع على حدود تركستان ـ وقد كان هذا النسيج من أحسن أنواع الصوف وأنعمها وأكثرها شفافية ، وكان مركزه مدينة (تانيس) • ويقال انه كان فى هذه المدينة ثمانون منسجا للأقمشة ، وكان السلطان يأخذ ملابسه منها • كما كان من منتجات هذه المدينة أيضا ، ستائر الكعبة ، التى ترسل الى مكة سنويا مع المحمل •

وقد كانت صناعة المنسوجات الصوفية والحريرية والتيلية الفاخرة مشهورة في مصر فى أيام الفراعنة ، ولكن يظهر أنها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ازدهرت وارتقت رقيا عظيما ، وخصوصا فن صناعة النسيج الموشى بالذهب والمطرز بالقصب ، الذى كان غاية فى الاتقان والجمال ، وكان غالى الثمن جدا •

والنوع الوحيد من الفخار الذى يصنع الآن فى مصر هو الأوانى الطينية ، التى تصنع فى (قنا) والجهات القريبة منها ، والتى تستخدم فى تبريد المياه ـ كالقلل وأوعية الترشيح كالأزيار ـ وفى أسيوط تصنع أوعية خزفية ملونة ، ولكنها هشه ، وقليلة الفائدة • هذا كل ما بقى لمصر من صناعاتها !!

مركز مصر بين القارات ، منشأ نكبة الامتيازات !

◆ **واذن** فقد كانت لمصر موارد كثيرة للثروة ، الى جانب زراعتها ، ومن ثم كان لابد من تبادلها منتجاتها الصناعية

والزراعية مع الأمم الأخرى . ومما يساعد على ذلك موقعها الممتاز بين الشرق والغرب ، فقد كانت مركز التبادل بين أوروبا والشرق الأقصى ، تمر بها - حتما - تجارة الهند وأراضى البحر الأحمر وأواسط أفريقيا ، **فتكونت الشركات العظيمة للتجارة الأجنبية فى موانىء دمياط والاسكندرية ، وهى الشركات التى منحت فى بداية الأمر ما يسمونه « بالامتيازات » - وكانت تلك هى نواة الامتيازات الأجنبية ، التى عظم شأنها وتفاقم أمرها فيما بعد ! - وكانت عبارة عن شهادات امتياز ، أو أجازات ملكية معززة بالوعود والأقسام !**

والواقع أن الحكومات الاسلامية التى منحت هذه الامتيازات لم تكن تنظر اليها باعتبارها معاهدات ، تتضمن تقرير التزامات متبادلة ، بل كانت تعتبرها منحا وهبات بلا مقابل ، اعطيت - من باب التسامح لا أكثر - الى قوم حرم الاسلام عليها الاتفاق معهم ، بل ألزمها بأن تكون فى حرب معهم على الدوام .. وغاية ماهنالك ان هذه الحكومات كانت من الأريحية والكرم بحيث سمحت لهم بالاقامة على أرضها ، والتمتع بمزايا لم تكن لشعوبها .. وعلى كل حال فمهما كانت الصبغة الأصلية لتلك الامتيازات ، فانها غدت مع الزمن معاهدات حقيقية ، وعلى ضوئها تكونت فيما بعد نواة القانون الدولى بين الشرق والغرب .

وبعد أن فترت حدة التعصب الدينى ، اثر الحروب الصليبية ، سرعان ما نشطت العلائق التجارية بين المسيحيين والمسلمين ، ولما لم يكن المسلمون فى مبدأ عهدهم رجالا بحريين ، فقد وقعت التجارة البحرية كلها فى يد الأوروبيين . حقيقة ان كثيرا من الدول الاسلامية شيدت أساطيل حربية واحتفظت بها . الا أن هذه الدول لم توجه - أو قليلا ما وجهت - اهتمامها نحو استعمال تلك الأساطيل للتجارة البحرية !

وكان تجار الجمهوريات الايطالية هم أول من تبادلوا التجارة مع مسلمى الشرق · واليهم أعطيت الامتيازات الأجنبيــــة الأولى · وكان أول من منحها سلطان (فالنسيا) لجمهورية بيزا فى سنة ١١٥٠ · وأما من منح تلك الجمهورية الامتيازات بصورتها الكاملة سنة ١١٧٣ فهو صلاح الدين الأيوبى ،الذى كان يحكم فى ذلك الوقت امبراطورية الشرق من برقة الى الفرات !

الا أنه لابد أن امتيازات مماثلة منحت قبل ذلك بزمن بعيد ، للأجانب ، وقد منحها الخلفاء الأمويون فى مصر ، ولو أنها لم يأت ذكرها فى الكتب صراحة ، لأن التاريخ المبكر لمدينة البندقية يرينا أن التجارة بينها وبين مصر كانت متسعة مثمرة، ولا يمكن ان يستقيم ذلك الا مع وجود امتيازات تحميهم من تعسف بعض الحكام

وقد شملت هذه الامتيازات فى النهاية كل دول أوروبا ، فصارت مصر مرتعا خصبا للأجانب من أى جنس وملة !

السلطان سليم الأول

الا ان اكتشاف أمريكا ، وتحول تجارة الهند عن مصر عقب العثور على طريق رأس الرجاء الصالح ، قد سدد ضربة قاسية الى التجارة المصرية . ثم لما قهرت مصر فى سنة ١٥١٧ بدخول الفاتح العثمانى سليم الأول ، كان فى ذلك تمام خرابها . ومنذ ذلك الوقت ، بدأ عهد انحلال وعزلة ، وأخذت مصر فى التدهور الى درك سحيق من الضنك والشقاء ، وأجدبت فيها الآداب والعلوم والفنون ، واستمرت هكذا فى ظلمة دامسة .. وستظل كذلك الى أن يظهر فى سمائها ذلك النجم الذى يهديها الى طريق المجد مرة أخرى ، ويفتح لها صفحة جديدة من الرخاء والسعادة والسلام .. (١)

تم الكتاب

(١) كتب المؤلف هذا الكلام فى عام ١٨٩٥ ..وقد حققت الأقدار نبوءته ، بعد نصف قرن !

عندما أسرت مصر ملك فرنسا!
(فى عهد "شجرة الدر")

فى هذا الكتاب الممتع - الذى ننشره فى أوانه - تقرأ قصة انهيار جيوش فرنسا بقيادة ملكها "لويس التاسع" - عام ١٢٥٠م - فى عهد السلطانة "شجرة الدر" - أمام استبسال الجيوش المصرية فى المنصورة .. وأسر الملك الفرنسى مقيدًا بالسلاسل، فى حراسة خصى! .. وقصة السلاح السرى الذى فتك بواسطته المصريون بأعدائهم .. ومصرع السلطان "طوران شاه" بيد مطارديه وهو يسبح فى النيل .. واغتيال زوج شجرة الدر "المعز" بتحريض منها، بدافع الغيرة! .. ثم مصرع شجرة الدر "بقباقيب الحمام" بيد جواريها، بتحريض من "ضرتها" الزوجة السابقة للسلطان! .. والجوارى الحسان - الروسية، والإيطالية، واليونانية - اللواتى حكمن سلاطين الأتراك .. الخ .. الخ

صفحات مجد وفخار لمصر ..
وعار ومذلة لفرنسا ..
فلا تفوتك قراءته!